سنابل في موسم الحصاد

مجموعة قصصية

أحمد عزيزالدين

الطبعة الأولى

2021م- 1442هـ

ديوان العرب

للنشر و التوزيع

جمهورية مصر العربية - بورسعيد

عنـــوان الكتاب: سنابل في موسم الحصاد

اســـم المـؤلف: أحمد عزيزالدين

التصنيف الأدبي: مجموعة قصصية

رقـم الإيـــداع: 2798 / 2021

الترقيـم الدولي: 6 - 85 - 6749 - 977 – 978

تـصميـم الغلاف: محمد وجيـــه

التدقيـق اللغوي: د. هبة ماردين

التنسيق الداخلي: محمد وجيـــه

رقـــم الطبـعـة: الطبعة الأولى

المديـــر العام: د. فادية محمد هندومة

دار ديوان العرب للنشر والتوزيع - مصر - بورسعيد

جوال: 00201211132879

البريد الإلكتروني: mohamedhamdy217217@gmail.com

حقـوق الطبـع والنشر لهذا المصنف محفوظة للمؤلف، ولا يجـوز بأي صورة إعادة النشـر الكلـي أو الجزئـي، أو نسـخه أو تصـويره أو ترجمتـه أو الاقتبـاس منـه، أو تحويله رقمياً وإتاحته عبر شبكة الإنترنت، إلا بإذن كتابي مسبق من المؤلف أو الناشر.

سنابل في موسم الحصاد

مجموعة قصصية

أحمد عزيزالدين

2021

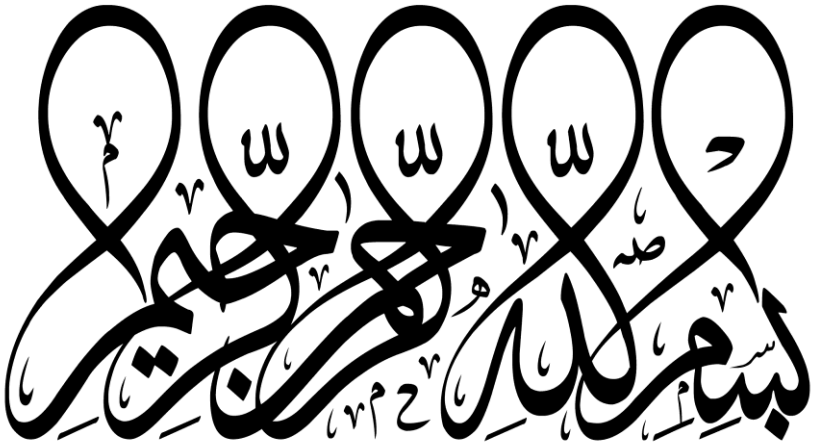
بسم الله الرحمن الرحيم

إهداء

،،،،،

تذكرتُ أنني لم أُهدِ العَالمَ ترانِيم السّلَام على

أَوْرَاقِ الورد الأحمر.. ليحيا الحُبُّ رسولاً إلى عالمِ

العارفين بين الأنامِ فأهديتُ إليهِم

أحباري وأوراقي بين دفتيّ كتابي هذا.

الْمُؤَلّف،،،،،،،،،

شِتَاء ٢٠٢١م

❊❊❊❊

أتون الذكريات

في لفتةٍ من لفتات الزمن في بداية الثمانينيات، ترتحل عائشة تاركة خلفها ركاماً من الأحزان يعصر قلوب المحيطين بها، وكأنه حطب قد اشتعلَ في أتونٍ للخبز على وهج صاج الذكريات.

ذهبت عائشة إلى محطة القطار تنتظر موعد قدومه لترتحل إلى خالتها بعد أن أضناها البحث عن ملاذٍ آمنٍ في دنيا الأشقياء، ظلت واقفة في انتظار قطار السفر، ساعات مرت عليها كأنها دهور أو قل إن شئت كأنها أيام عمرها الذي تساقط كما تتساقط أوراق الشجر في مواسم الخريف، وهي تنتظر رفيق العمر الذي أبى إلا الغياب، وقد رحل الصبي بجماله وعزوبته مخلفاً وراءه ذبول الأمنيات.

إلى متى؟!..

على البعد شاهدت القطار قادماً من بعيد قالت في نفسها وقد هاجت بالنفس الذكريات لقد أتيت بعد فوات الأوان واستقر العمر بخريف الزمن وارتحل الربيع إلى خزانة النسيان.

صعدت عائشة القطار وقد بدا على وجهها ذكريات الماضي وأوجاع السنين جلست حيث انتهت بها قدماها وأسندت رأسها المنهكة من التفكير على شباك القطار تاركة رأسها غارقة في أتون الذكريات تتمنى لو رحلت كما يرحل صوت القطار مع رياح السفر حتى تستريح.

ولكن هيهات فلقد علق الماضي بأوردة الجسد المنهك واختلط بسائل الحياة فأين المفر؟!

قدمت عائشة على خالتها الأرملة والتي كانت تسكن في مدينة الإسكندرية مع ابنها الوحيد والذي كان قد فاته قطار الزواج، وكان يعمل إسكافي في أحد أحياء المدينة وهو "حي المكث" وكان يقضي جل يومه غارقاً في عمله وكأنه يخفي شجون النفس بين طيات الآلة التي يعمل عليها.

وكان شاهين رجلاً متوسط الطول قد تعدى العقد الرابع من عمره وكان طيب القلب صافي النية ولكن لم يكن على قدر من الجمال وهذا ما جعل النساء تعزف عن الارتباط به.

استغرق وصول عائشة إلى منزل خالتها في حي المكث قرابة الساعة إلى أن استقرت أخيراً بشقة خالتها، والتي بدت عليها السعادة عندما قدمت إليها وكانت خالتها عطيات سيدة مسنة ولم تعد تتحمل حتى قضاء التزاماتها هي

وابنها وقالت في نفسها: لقد أرسل الله لي عائشة لتقوم على شأني فأنا بمثابة والدتها.

عاد شاهين في المساء كعادته من العمل ولكن على غير المعتاد أيضاً عندما دلف إلى المنزل شاهد كل شيء قد رتب ووضع كل شيء في مكانه الصحيح وهو الذي اعتاد من سنوات على حالة الفوضى التي كانت تدب في أركان الشقة، وعندما دخل إلى حجرة المعيشة هاله ما رأى!! لقد وجد الطعام مُعداً سلفاً، ومغطى بشاش أبيض نظيف؛ فكشف عنه فإذا به قد أعد من مدة وجيزة، فتحرك خارجاً بحركة سريعة ليسأل ولدته عما رأى فإذا به يُفاجَأ بفتاةٍ جميلةٍ في الثلاثين من عمرها تقريباً، أمام عينيه فتلعثمت الكلمات في فمه واعتلى وجهه حمرة الخجل، فقالت له والدته وقد لاحظت حمرة الخجل بادية على وجهه: هذه ابنة خالتك، ونظرت إلى عائشة قائلة: إنه شاهين ابني الذي حدثتك عنه.

جلس شاهين وعائشة بعد العشاء يتجاذبان أطراف الحديث على أريكة وعبق الذكريات يخيم على المكان؛ فلقد مرت سنوات عديدة من آخر لقاء بينهم وهم أطفال وتذكروا أيام الطفولة البريئة، ولكن سرعان ما انقطع الحديث وغابت الذكريات.

هناك بين طيات الماضي فليس هناك قاسم مشترك.

فكلٌّ منهم قد قضى طفولته بعيداً عن الآخر فماذا عساهم أن يتذكروا؟!!....

سرحت عائشة بأفكارها المؤلمة وأخذتها النفس إلى حديث لا ينتهي مع الذات.

وهي يمر بمخيلتها شريط ذكريات العمر قالت لنفسها حتى الذكريات أبت ألا تسعفنا في خريف العمر وانقطعت مثل ما انقطع لمعان الصبي في بريق العينين ونعومة الجسد في قيلولة الشباب الذي ومض كبريق الرعد في ليالي الشتاء ليبقيني في أتون الذكريات.

****

أين الكنز

في يومٍ من الأيام قال الابن لأبيه: أرأيت يا والدي الأرض التي نملكها على أطراف القرية؟ فقال الأب ما لها يا بني؟ قال الابن: لقد ملأتها الناس بالقمامة يا والدي وهنا قاطعهم الجد قائلاً:

يا بني إن هذه الأرض مدفون بها كنز ثمين فنظر الابن والحفيد إلى الجد باستغراب شديد!! فنظر إليهم الجد نظرة تأكيد، وقال: نعم يا بني هذا هو السر الذي كنت أخفيه عنك منذ فترة كبيرة، لقد قال لي أبي رحمة الله عليه أن بهذه الأرض كنز ثمين، فقال له الابن: ولمَ يا أبتِ لم تستخرجه إلى الآن؟ فقال الجد: يا بني عندما كنت صغيراً لم أستطع وأبي كان شيخاً طاعناً في السن، كما أنا الآن وعندما كنت في شبابي أخذتني الدنيا وألهتني حتى صرت كما ترى، فلا أقوى على استخراج هذا الكنز وكنت أنت صغيراً وخفت إن استخرجته تسطوا عليه الناس، ولكن أنت الآن صرت رجلاً واشتد عودك فآن الأوان أن تستخرجه.

ولكن قبل أن تستخرجه هناك شروط قال لي والدي عليها يجب فعلها وإلا لن تستطيع إخراج الكنز.

فقال الابن والحفيد معاً:

- ما هي هذه الشروط يا أبتاه؟

فقال الجد:

-أولاً: يجب تنظيف الأرض تماماً من كل القمامة التي عليها.

وبعد أن تنتهوا من هذا الشرط سوف أقول لكم على الشرط الذي يليه هذه وصية أبي يا بني.

فقال الابن: من الغد إذاً نبدأ يا والدي، فقال الجد: على بركة الله ومشيئته.

استيقظ الجميع في الصباح الباكر وتناولوا إفطارهم بعد أن صلوا صلاة الفجر وتوجها إلى الأرض وكانوا قد استأجروا عربة لحمل القمامة إلى خارج القرية حيث مكان تجمع القمامة، واستمر العمل من الصباح الباكر حتى غروب الشمس دون كلل أو ملل في أمل العثور على الكنز.

ولكنهم رغم هذا العمل الدؤب لم يستطِعوا أن يرفعوا كل القمامة الموجودة على الأرض، فقال الحفيد لأبيه: يا أبتِ لقد تعبنا ولكن لم نستطِع رفع القمامة كاملة، فقال الأب: نعم يا بني إنها كثيرة جداً، فقال الجد إلى الغد إذاً بمشيئة الله.

رجعت العائلة إلى المنزل منهكة القوى ولكن عزيمتها قوية لم تنهَر أمام العمل الكثير والقمامة المتراكمة من سنوات، بعد أن تنظف الجميع وجلسوا جميعاً على طاولة الطعام قال الجد: يا بني عليك بالمثابرة والصبر والجد فإنهم من عزائم الرجال، ولن ينال المرء ما يسعى إليه إلا بعزيمة قوية، فكن يا بني من هؤلاء الرجال، فقال الابن: إن شاء الله يا والدي، انصرف كلٌّ منهم للنوم للاستعداد ليومٍ شاقٍ في الغد بإذن الله.

في الصباح الباكر كالعادة توجه الجميع إلى الأرض وبدأ العمل الشاق ورفع القمامة عن الأرض في مثابرة شديدة وعمل دؤوب طوال اليوم حتى غربت شمس ذلك اليوم أيضاً، ولكنهم لم ينهوا العمل بشكل كامل، أي نعم استطاعوا رفع القمامة من المكان ولكن بقي النذر القليل، ولكنهم قد أصابهم التعب والأعياء؛ فقال الابن لأبيه: يا أبتِ تعلم ما نحن عليه فهل نوجل العمل إلى الغد؟ فقال الجد: نعم يا بني إذا كثر عليك العمل يجب عليك أن تقسمه على الأيام؛ فلقد خلق الله الدنيا في ستة أيام وكان سبحانه قادراً على أن يقول لها كن فتكون، لذا علينا الصبر إلى الغد بإذن الله.

في اليوم الثالث توجه الجميع إلى أرض الكنز، وقال الجد: اليوم عمل ليس بالثقيل ولكن في غاية الأهمية، فقال الحفيد: كيف ذلك يا جدي؟ فقال

الجد: يا صغيري إن الأرض يجب أن تنظف جيداً من بواقي القمامة، ثم تحرث جيداً وتترك للتهوية ثلاثة أيام، وهذا هو الشرط الثاني الذي قال لي عليه والدي رحمة الله عليه؛ فقال الابن: سمعاً وطاعة يا والدي.

فعل الابن ما قال له عليه والده وانتظروا ثلاثة أيام، ثم سأل الابن والده: وماذا بعد يا والدي حتى نستخرج الكنز؟

فقال الجد:

ـ الشرط الثالث يا بني هو تقسيم الأرض وزراعتها بأصناف البذور فتعجب الابن وقال: يا أبتِ ظننت أنك تقول لي احفرْ في موضع كذا من الأرض بعمق كذا....

وهنا قاطعه والده وقال:

ـ هذا الشرط الثالث يا بني وعليك تنفيذ ما أقول حتى تنفذ وصية جدك ونستطيع إخراج الكنز.

ـ فقال: حاضر يا والدي لنرى...

توجه ثلاثتهم إلى الأرض وأخذ الابن والحفيد في العمل وتقسيم الأرض ووضع أصناف البذور بها وسقيها، وقال الابن: هكذا فعلت يا والدي فمتى تخرج الكنز.

قال الجد:

_لن نستطيع إستخراج الكنز قبل ستة أشهر يا بني فكن صبوراً فإن الكنز ثمين ولن تنال الأجر إلا بالصبر؛ فتعجب الابن والحفيد من الجد، ولكنهم التزموا الصمت.

مرت الأيام والجميع ينتظر مرورها حتى يستخرجا كنزهما ويكونا قد نالا أجر عملهما الشاق.

وفي اليوم الموعود قال الابن للجد: يا أبتِ لقد مرت الستة شهور وقد استوت الزروع التي قد زرعناها بالأرض؛ فقال الجد: عليك أن تحرقها يا بني فتعجب الابن بشدة!! وقال لمَ يا أبتِ، وصاح الحفيد: كيف تقول ذلك يا جدي؟ ونحن قد بذلنا مجهوداً كبيراً واستطعنا تطهير الأرض وحرثها وزراعتها فلمَ نحرق المحصول؟ أليس من الأجدر بنا أن نقوم ببيعه؟ فقال الجد: هذا شرط إستخراج الكنز!!

_فقال الحفيد الصغير: لا نحتاج الكنز هذا يا جدي إنما نحتاج المحصول الذي تعبنا حتى خرج من الأرض

_وقال الابن: نعم يا والدي.

فضحك الجد وقال:

ـهذا ما أردت يا أولادي أن يصل إلى فهمكم وإدراككم، أن الكنز الحقيقي هو الإصرار على تحويل القُبح إلى الجمال، هل تتذكرون كيف كانت الأرض؟ لقد كانت تملؤها القمامة وبفضل الله وبفضل مجهودكم الكبير والمثابرة على العمل والإصرار استطعتم أن تحولوا الأرض إلى كنز حقيقي، سيبقى معكم مدى الحياة فهل علمتم أين الكنز؟!.

****

الصدق منجي

في يوم من الأيام كان الأرنب الصغير يسابق الزمن في اللعب واللهو، ويستمتع بكل لحظة في الإجازة الصيفية، فقد انتهت الدراسة، وحصل على درجات عالية في العام الماضي، ولذلك يريد أن يعوض ما فاته من الالتزام بتحصيل الدروس في هذه الإجازة؛ لذا أعد لنفسه برنامجًا للاستمتاع، فهل يا ترى سينفذ ما خطط له؟ تعالوا لنرى...

قال أرنوب الصغير لأمه ذات يوم: أماه أريد أن أذهب إلى الغابة؛ لكي أستمتع برحلة جميلة عبر المرتفعات وقمم الهضاب، وبين المروج الخضراء فقالت له الأم: ولكنك يا بني صغير، وأخاف عليك من الذهاب بمفردك، ففي الغابة حيوانات متوحشة؛ فربما صادفك أحدهم فلن تستطيع النجاة منه، فقال أرنوب الصغير: يا أماه أنا كبرت وأستطيع حماية نفسي جيداً فقالت الأم: لا تذهب وإلا سوف تكون العواقب وخيمة... فصمت أرنوب ولم يجب بكلمة واحده، فقالت له الأم: أنا ووالدك سوف نذهب لشراء مستلزمات المنزل وإياك الخروج من المنزل حتى نعود، فنظر إليهما أرنوب الصغير وأومأ برأسه بالموافقة.

ذهب الوالدان أرنب وأرنوبة إلى السوق للتسوق، ولكن أرنوب الصغير لم يهدأ من التفكير، وقال لنفسه: لماذا لا أذهب إلى الغابة وأعود قبل أن يرجع والداي من السوق وأكون قد شاهدت الغابة، وأستمتع قليلاً... أعجبته الفكرة كثيراً، فخرج من الدار متوجهاً نحو الغابة التي كانت على مقربة من دار أرنوب... وتوغل أرنوب في الغابة دون أن يدري... لقد شدته مناظر الغابة وأشجارها المرتفعة ومصبات المياه وقمم الهضاب ونسي ما وعد به والدته بعدم الخروج من المنزل، حتى أنه نسي أن يعود إلى المنزل قبل عودة والديه.

رجع أرنب وأرنوبة إلى المنزل ولكنهم تفاجآ بأن باب المنزل غير مقفل، فاستغربا بشدة، وأسرعا إلى المنزل ليبحثا عن أرنوب الصغير، ولكنهم لم يجداه فطارت عقولهم من الحيرة أين ذهب أرنوب الصغير؟

ولكن الأم فجأة تذكرت حديثها معه قبل أن يذهبا إلى التسوق، فقالت بصوت مرتفع: أنا أعلم أين ذهب؟ فقال أرنب أين ذهب؟ فقالت: ذهب إلى الغابة.

أسرع كل من أرنب وأرنوبة إلى الغابة للبحث عن صغيرهم.

أرنوب الصغير توغل في الغابة ولكنه فجأة تذكر أنه لا بد أن يعود إلى المنزل قبل عودة والديه... ولكنه ضل طريق العودة وتاه في الغابة... وقد أقبل الليل وهو يبحث عن طريق العودة... ولكن للأسف الشديد لم يهتدِ؛ فجلس على قارعة الطريق يبكي على أنه لم يسمع كلام والدته.

أخذ الوالدان يبحثان في الغابة على صغيرهما، وفي أثناء بحثهم وجَدَا الزرافة تقول لهما عن أي شيء تبحثون، فقالا: عن صغيرنا... لقد جاء إلى الغابة دون أن يدري مدى المخاطر التي تحيط به، ونحن نبحث عنه، ربما عثرنا عليه.. فقالت لهما: سوف أساعدكما في البحث، وأخذت تنظر إلى أعلى... حملت أرنب وأرنوب على ظهرها، وتجولت في الغابة بسرعة كبيرة حتى رأته على قمة أحد التلال بعد أن هداه تفكيره إلى الذهاب إليها ليستطيع مراقبة الطريق.

قالت الزرافة: ها هو هناك على قمة إحدى التلال... فقالا لها: رجاء، اذهبي إليه. وعندما رأى أبويه انفجر في البكاء فقال له والده:

ـيا بني لا تبكِ فأنت قد أخطأت. أولاً: بالخروج من المنزل بدون إذن منا. ثانياً: لأنك كذبت علينا بأنك لن تذهب إلى الغابة وذهبت وعرضت نفسك للمخاطر الشديدة في الغابة.

يا بني الصدق ينجي، والكذب فيه الهلاك المحقق فكن دائماً صادقاً.

عاد أرنوب مع والديه إلى المنزل وقد وعد والديه بعدم الكذب مرة أخرى، وأن يكون مطيعاً لهما صادقاً فيما يقول.

****

أزقتي مَرْمِيَّة

جَاءَت تَرفلُ في ثِيَاب الزَّهْو والتَّرَفِ يانِعة بشبابها على أعتابها يتغزل بها مريدوها وتحسدها الصبايا لجَمَالِ قدها الفتان، تلفت أنظار العاشقين مِنْ زَمَنٍ يأتي إليها المُرِيدِونَ مِنْ كُلِّ حدبٍ وصَوْب، كانت يافعة ليسَتْ كَكُلِّ الصبايا ولَكِنْ كَانَ يَجْتَمِعُ بِهَا جَمَال كُلِّ العذارى كَانَتْ رَقِيقَةً حالمة هَادِئة كسكون اللَّيْل في ليالي الرَّبِيع الحالمة، وَكَانَت تَتَمَتَّع بأريج مِن طعمٍ خَاصٍ لَيْس كعطور الْأَرْضِ لِذَلِكَ أَطْلَقُوا عَلَيْهَا الفيحاء، وكَانَت تَتَبَخْتَر في مِشْيَتِهَا بهيَّة ممشوقة القوام يَعْلُوهَا الجلالُ و الكِبرِياء.

لِذَلِك كَانَتْ مَطْمَعاً لِمَن يُشَاهَد حُسْنهَا وجَمَالهَا كَانَتْ مُنْذُ وِلَادَتِهَا ونشأتها أَبِية لَا يَسْتَطِيعُ أَحَد مِنْ النَّاسِ النَّيل مِنْهَا كَانَتْ تحيطها الحماية والْحِرَاسَة مِنْ أَهْلِهَا عَلَى الدَّوَامِ عِنْدَمَا بَلَغَتْ سِنَّ الشَّبَابِ تَهَافتَ لِخطَبْتها وطَلَب ودها الْمُلُوك والْأُمَرَاء والسَّادَة ولَكِنَّهَا كَانَتْ تَأبى في كِبْرِياء.

وعِنْدَمَا لَمْ يَجِدُوا إلَى ودها سَبِيلاً عَقَدُوا النِّيَّةَ أَنْ يكيدوا لَهَا وَأَنْ يُوقِعُوا بِهَا في غَفْلَةٍ مِنْ أَهْلِهَا وذَوِيهَا، وَفي لَيْلَةٍ غَابَ عَنْهَا الْقَمَر واشْتَدَّ ظلامها وغَفْلَة أَهْلِهَا، شَدُّوا إلَيْهَا الرِّحَالُ وَقَفُوا بأعتاب دَارِهَا يَتَحَسّسُون ويتجسسون حَتَّى

إذَا تَأَكَّدُوا بِأَنَّهُ لَا يُوجَدُ غَيْرهَا بِالدَّار، انقضوا عَلَيْهَا ولَم يَتْرُكُوهَا إلَّا وَهَي غارقة فِي دِمَائِهَا، لَقَد أوقعوها جبراً في براثم الْإِثْم والْمَعْصِيَة واختطفوا مِنْهَا أَعَزّ مَا تَمْلك الفَتَاة، وكَسَرُوا كبرياءها وشموخها، ونهشوا شَرَفهَا وَلَمْ يَكْتَفُوا بِذَلِكَ، بَلْ نهبوا مُمْتَلَكات الدَّارِ وَتَرَكُوهَا مسربلة بِالدِّمَاء ولاذوا بالفرار...

فتحطم على أعتابها الشَّاغُور، والْقَنَوَات، والصَّالِحِيَّة، وباب تُوما، ووادي الثَّرَى في القمرية، فَبَكَت الرِّجَال وتَنَاثَرت عَلَى أعتابها الليالي الأرجوانية... دِمَشْق أَنْعي...

****

أحكام مغلوطة

الْحَقُّ يا أخي أَنّ حَدِيثَكَ هَذَا وَافَقَ خَالجَة بِالنَّفْس، كُنْت أُخْفِيهَا مُنْذ فَتْرَة عَنْ الْعَامَّةِ وَالْخَاصَّة وكُنْت أبْحَثُ فِي طَيَّات النَّفْس ومَوَاضِع الْفِكْرِ عَنْ حَلٍ لَهَا، لكنْ أعياني الفِكْرُ وأخفقتْ خلجاتُ الرُّوح عَنْ الإِتْيَانِ بِهَا، حَتَّى كَانَ لِقَاؤنا هَذَا بَاعِثاً لِلْفِكْر.

مِمَّا أَوْحَى لي بِمَا شغلني مُنْذ فَتْرَة لَيْسَت بالقصيرة وهَا أَنَا ذَا أَجْمَع بَوَاعِث النَّفْس وجَنَبَات الرُّوح لأصيغ الفِكْرَة بِمَدْلُولِهَا الْعَام حَتَّى أتمكن مِنْ الْخُرُوج مِنْ هَذَا الكمّ المتراكِم مُنْذُ عُقودٍ وجثا عَلَى صدري.

هَذَا مَا دَارَ بَيْنَ الدكتور صَلَاح والْمُهَنْدِس جَابِر في دُوار الْعُمْدَة حَسَنَيْن حَيْث مَنْزِلِهِم الْعَامِر.

في صَيْف عَام ١٩٧٧ بِإِحْدَى قُرَى مُحَافَظَات صَعِيدِ مِصْرَ.

تَحَرَّك جَابِر خَارِجاً مِن المَنزِلِ بَعْدَ أَنْ سَلَّمَ عَلَى أَخِيهِ الدكتور صَلَاح قَائِلاً: سَوْفَ أَذْهَبُ حَيْثُ يُوجَدُ الْعُمْدَة لِأَسْلَمَ عَلَيْهِ وَأَشَاهِدَ الرِّيف، قَالَ: ذَلِكَ هُوَ عَلَى عَجَلَةٍ مِنْ أَمْرِهِ فَرَدَّ عَلَيْهِ صَلَاح: قُلْ أَبَى يَا هَنْدَسَة، فَضَحِك جَابِر وَلَمْ يرُدْ عَلَيْهِ ممتطياً صَهْوَة الْحِصَان الَّذِي أَعَدَّه لَه السَّائِس مِن فَتْرَة وَجِيزَة،

انْطَلَق جَابِر تاركاً خَلْفَه الْقَصْر بِمَنْ فِيهِ وَلَكِنْ صَلَاح كَانَ يَعْلَمُ لِمَاذَا كَانَ جَابِرُ عَلَى عَجَلَةٍ مِنْ أَمْرِهِ رُغمَ اتِّسَاع النَّهَار؛ فَهُو أَخُوه الْأَكْبَر ومَكْمَن أَسْرَارُه و بواعثه.

لَمَحَ جَابِرُ الشغالة كَمَا يُسَمُّونَهُم، وَهُم يَعْمَلُون بكد وَنَشَاط في الحُقُول مترامية الْأَطْرَاف، وهُوَ عَلَى صَهوِه حِصَانَه ولَكِنَّهُ لَمْ يلمَح العُمْدَةَ كَمَا كَانَ يَحْلُو لَهُ أَنْ يُسَمِّيه، وأَخَذ التَّفْكِير يَتَسَرَّب، إلَى رَأْسِهِ أَيَكُون أحد الْعُمَّالِ قَدْ لَا لَا. . ؟ وَلَكِنْ كَيْفَ وهُمْ في قِمَّة نشاطهم وفي عَمَلٍ دؤوبٍ، لَا لَا هَذَا تَفْكير غَيْر صَائِبٍ، رُبَّمَا يَكُونُ جَالِساً في ظِلّ أَحَد الْأَشْجَارِ لَا أَسْتَطِيعُ مُشَاهَدَتَهُ وأَخَذَ يَدْنُو شيئاً فَشَيْئاً مِن العُمَّالِ وعِنْدَمَا اِقْتَرَبَ أَكْثَر سَمِعَ صَوْتًا أَجَشّ يَقُولُ: لَا تَنْزِل إلَى الغويط يَا عليوة! فالتفتَ الْمُهَنْدِسُ جَابِر إلَى مَصْدَرِ الصَّوْتِ وَكَانَت المفاجأة!!

لَقَدْ كَانَ الْعُمْدَةُ بِشَحْمَه ولَحْمُه وكَانَ مَعَهُ أَحَد الْعُمَّال وكَانَ عَلَى مَا يَبْدُو قَدْ سدَّ نَبَع الْمِيَاه الْمُؤَدّي إلَيّ وماكينة لِلْمِيَاه فَقَد اِقتربَ مَوْعِدُ الريّ بَعْدَ أَنْ قَامَت العُمَّالُ بِتَجْهِيز الحُقُول وإعدادِها لِزِرَاعَة المَحصُول الْجَدِيد.

الْتَفَت الْعُمْدَة إلَى مَنْ كَانَ عَلَى صَهوِة الحِصَان قَائِلًا: حَمْداً لِلَّهِ عَلَى سَلَامَتِك يَا بشمهندس وتَرَجَّل جَابِر بِسُرْعَة عَن صَهْوَة الْحِصَان مسرعاً إلَى وَالِدِهِ

وانحنى مُمْسِكاً بِيَدِه يَقْبَلُهَا، ويَقُولُ: اللَّهُ يُسَلّمَك يَا جَنَاب الْعُمْدَة فقْهِقه وَالِدِه وقَالَ لَهُ: قَلْبي يئن يا ولدي ووضَعَ يَدَهُ على كَتِفِ ابنه وسَارَ بِهِ إلَى موضع جلوس بِجِوَار الماكينة المُعَدَّة خصيصاً للعُمدة، قَال لَهُ أُرِيدُ أَنْ أَعْرِفَ مِنْك كُلّ أخْبَار الْمَحْرُوسَة وأخْبَار الدِّرَاسَة طَبْعًا يَا هَنْدَسَة، فَقَال صَلَاح عَلَى الرَّحْب والسَّعَة يَا عَمْدُة، وهُوَ مِنْ شَرْحِ الأسارير ولَكِنْ قَبْلَ أَنْ أحكي لَك أرجو مِن حَضَرَتْك أَن تطمئني عَلَى صِحَّتِك وَهَل صَلَاح يُبَاشِر عَمَله كَطَبِيب وإيه أَحْوَال الْعُزْبَة؟؟

رَدّ العمدة قَائِلًا وَهُوَ يَضْحَكُ: دُكْتُور عَلَى نَفْسه أَبُوك صِحَّتِه زي الفل وأَجْدَع مِنْك كمان.

جَلَسَ الِاثْنَان تَحْتَ الشَّجَرَةِ يتجاذبان أَطْرَافَ الحَدِيثِ، يَعْلُوا حَدِيثهم الضحكات الْعَالِيَة أَحْيَانًا، وأَحْيَانًا أُخْرَى الهمهمة غَيْر المَفهومة وتَارَةً صمت وتَجَافٍ، كَأَنَّهُم أغرابٌ في دُنْيَا الحيَاة فَكَيْفَ كَانَ الْحَدِيثُ بَيْنَهُمَا ومَا سِرُّ صمت الْقُبُور الَّذِي يَسْكُن الْحَدِيث بَيْنَهُمَا؟

جَلَس الدكتور صَلَاح وَحِيدًا كَعَادَتِه بفنَاء المَنزِل يُطَالعُ أَحَدَ كُتُب الطِّبِّ الَّذِي كَانَ بَيْنَ يدِيَه مِن فَتْرَة، وقَبْلَ حُضُورِ جَابِر إلَى مَنْزِلِهِمْ الْعَامِر ولَكِن صَلَاح حَس فجأة أَنَّهُ يَحْتَاجُ إلَى فِنْجان قَهْوَة، فَتَوَقف عَن الْقَراءَة وخَلَع

نِظَارَته وَأَمْسَك الْكِتَاب بِالْيَدِ الْأُخْرَى، واضعاً أَحَد أَصَابِعِه بَيْن دفتي الْكِتَابِ، حَيْثُ كَانَ يَقْرَأُ، ونَادَى عَلَى الْخَادِمَة وكَانَت سَيِّدة في الخمسين مِن عُمْرِهَا، زَوْجَة أَحَد الفَلَّاحِين الَّذِين.

حضرة السيدة تمشي الهوينى على وجل وعندما دنت سألها الدكتور صلاح هل تذكرين جميلة تلك الفتاة التي كنا نلعب سوياً في حديقة الفلا يا دادة فرمقته بنظرة حادة وبدت ملامح تعجب تعلو وجهها فبادرها صلاح: أين هي الآن يا دادة؟

فقالت وهي ترحل لتعد فنجان القهوة الذي أشار إليها به صلاح: لقد أخطأت مع أحد الفلاحين فكان مصيرها الموت!!

اندهش الدكتور صلاح وغرق في أيام الطفولة وكيف كانت من البراءة والسذاجة والجمال لقد تعلق بها قلبه وهم صغار وأخذ حديث النفس بأسئلة عديدة لماذا يقتلون من يخطئ؟ ألسنا بشراً نخطئ ونصيب؟ ولماذا لا يقتلون الرجل أيضاً؟ أليس هو مخطئ أيضاً؟ ولماذا العقاب دائماً للفتاة المخطئة؟

إنها قضية تبحث عن حل!!

****

النبوءة

قدم الرجل مهلهل الثياب رث الحالة يظهر عليه التعب والإعياء واستقر به الحال في إحدى القرى سيراً على الأقدام، وأثناء سيره إذ به يلتقي برجل وسيدة أرادا أن يستضيفاه لما رأيا من حالته؛ فأجلساه يتناول الطعام لكنه أبى أن يأكل، لماذا؟

كان الرجل والمرأة من أثرياء القرية ولديهم أراضٍ كثيرة وخير وفير ولكن حُرما الإنجاب والخلف منذ زواجهما ويريد كل منهما أن يكون له ولد حتى يرث كل هذا الخير الوفير....

بادرهما الرجل قائلاً: تمنى عليّ

فقال له: على أي شيء نتمنى عليك وحالك هكذا

فقال لهم بإصرار: تمنى عليّ

فنظرا إليه بتعجب لما رأيا من حالته وقالا: نتمنى الولد فنظر إليهما بتعجب وأطرق قائلاً: لماذا تريدان الخلفة؟

فقالا له: حتى يرث ما لدينا من خيرات ويحمل اسمينا ويكون لنا ذكراً بعد الموت.

فقال: تمنيا عليّ أمنية أخرى

فقالا: في إصرار لا أمنية غير هذه

فقال: ....

(لكن هذا الولد سيقتل أباه ويتزوج من أمه!!)

نظرا إليه باستغرابٍ شديد وهو يغادر وما هي إلا لحظات واختفى من أمامهما

نعم لقد كان (الخضر)، أو الرجل الصالح والذي يصادف بعض الناس على أعتاب الرحيل أتاهم في غفلة من الزمن ولم يدركا ما قال، ولكنهما فهماه جيداً.

مرت الأيام مسرعة على عجل وقد حملت الزوجة وأنجبت طفلاً، لقد كان ولداً وكان يشب بسرعة فائقة ويسبق جيله بكثير، فكان كما يقولون يومه بيومين.

كان أبو اليزيد وتناظر يسكنان في بيت متسع مليء بالخيرات وكانت تغبطهم عليه الناس وتحسدهم وخاصة الأقرباء والأهل وكان منزلهما العامر بمقربة من النهر.

لاحظت السيدة تناظر أن ابنهما يكبر على غير العادة! فقالت لزوجها: يا زوجي هل تتذكر ما قال لنا الرجل رث الثياب، قال: نعم وإني أخاف من تحقق نبوءته في هذا الغلام فماذا نفعل؟

فقالت له: سوف أضعه في هذا الصندوق وأضع معه عقدي الذهبي وبعض المال ونغلق الصندوق وعليك أن تضعه في النهر، فإذا وجده غيرنا فرح بالمال والذهب ورباه بهم حتى يكبر، ويكون بذلك أرسلناه بعيداً عنا وعسى أن يرزقنا الله بغيره، فقال لها الزوج: نعم الرأي والمشورة يا زوجتي العزيزة.

في اليوم الثاني وبعد أن حل الظلام جهزت المرأة وليدها وافترشت له الصندوق ووضعت ما قالت لزوجها عليه وحمله الزوج وسار به إلى النهر وهناك وضعه بالنهر لتسير به الأمواج إلى حيث يشاء الله طوال ليلة كاملة...

في الفجر ذهب السقا إلى المورد ليملأ القربة ليسقي أهالي القرية، وكان دائماً يبتدئ ببيت العمدة؛ لأنه كبير القوم وأغنى شخص فيها وهو يطمع في كرمه وعطائه، نزل السقا إلى النهر عند المورد ولكن هاله ما رأى!! لقد وجد صندوقاً مغلقاً؛ فالتقطه في الحال وقال الحمد لله لن أملأ قربتي اليوم

لقد رزقني الله بهذا الصندوق وحمله ورجع مسرعاً إلى زوجته التي كانت تحمل رضيعهم الذي لم يتجاوز الخمسة شهور فلما رأته قالت له: ما الذي أتى بك في هذه الساعة قبل أن تنتهي من عملك؟ ما هذا الصندوق؟ فقال لها زوجها وكان رجلاً حكيماً: اخفضي صوتك يا امرأة إنه رزق ساقه الله إلينا قالت رزق؟

جلسا على حصير لهما وفتحا الصندوق وإذا بهما يتفاجآ بطفل ومعه مبلغ من المال ومنديل به عقد من الذهب!! فقالت الزوجة: نسميه رزق.

كانت أم رزق ترضع الاثنين وليدها ومن جاء إليها زائراً على غير ميعاد، وكان رزق يكبر بسرعة فائقة حتى أنه فات أقرانه وكأنه أكبر منهم بسنوات بلغ رزق الثالثة عشر من العمر.

كان أبا اليزيد وتناظر على حالهما منذ أن أودعا ابنهما النهر ولا يعلما عنه شيئاً وكانت الأحقاد والحسد تلتف بهما من كل جانب ولكن لم ينجبا أطفالاً أخرى مما أحزنهما كثيراً.

كان رزق يلعب مع أقرانه ولكن كان دائماً ما يغلبهم ويضربهم أحياناً، ولا يستطيع أحد من أقرانه التغلب عليه مطلقاً مما جعلهم يحقدون عليه ويشتكونه لأمهاتهم، فقالت لهم أمهاتهم إذا فعلها مرة أخرى فقولوا له أن

جرير السقا ليس أباك وأن زبيدة ليست أمك فمن أبوك؟ وفعلاً قال له الأولاد ذلك فذهب مسرعاً إلى البيت فماذا سوف يصنع الصغير؟

جلس رزق يفكر ويفكر ماذا أصنع وعلى غير العادة أحضر حلة لهم وملأها بالمياه ووضعها على النار بعد أن أشعلها وجعل النار عليها حتى غلت المياه بشدة، ثم أحضر والدته ممسكها من شعرها وقال لها يا زبيدة من أبي ومن أمي ولكنها لم تجبه متعجبة مما يصنع فتجذبها بشدة وقال لها: إن لم تقولي لي من والدي سوف أضع وجهك في هذا الماء المغلي. فقالت: يا بني نحن ربيناك وأنت ابننا.

فقال لها: إن لم تقولي سأرحل وحتى إن قلتي سوف أرحل أيضاً فقولي حتى لا تجعليني أضع وجهك في هذه المياه التي تغلي، فقالت: سأقول يا بني.

رحل رزق عن القرية وارتحل عكس مصب مياه البحر إلى حيث تأتي المياه وسار رزق أياماً على قدميه فليس تدفق المياه كالمشي على الأقدام حتى العودة لا تشابه الرحيل والموت ينافي الحياة.

رأى رزق رجلاً يجلس على كوبري لترعة تمر بالزراعات لقرية مجاورة فألقى رزق السلام على الرجل وجلس بجواره يسأله عن عمل ليعيش منه. فقال له

الرجل: يا بني لا يوجد هنا عمل إلا الزراعة تعالَ وعاوني في الزراعة ورزقي ورزقك على الله، عاش رزق يخدم الرجل ويأكل من بيته واستمر الحال على ذلك لثلاث سنوات وفي يوم من ذات الأيام كان رزق وهذا الرجل أبو اليزيد ـوالذي لا يعلم أنه والده إلى الآنـ يسقيان ليلاً وكان الجو بارداً فقال الرجل للولد يا بني أنا أشعر بالتعب والإرهاق خذ عباءتي وهذه البندقية وأنهي الري ولكن إذا رأيت أي إنسان اضربه بالنار على الفور، وذهب الرجل عائداً إلى المنزل.

عندما رجع الرجل إلى المنزل سألته امرأته أين العباءة والبندقية فقال: لقد تركتهما لرزق حتى الصباح فهو يسقي الجنائن وقلت له إن رأيت أي إنسان أن يضربه بالنار على الفور، فقالت الزوجة: يا رجل أتترك عباءتك والبندقية لفتى غريب لا نعلم عنه شيئاً فلربما سرقهما وهرب؛ فقال لها: إنه معنا منذ ثلاث سنوات لنرى منه شيئاً، فقالت: لا بد لك من الرجوع إليه وإحضراهما قبل أن يهرب بهما وبعد مشادة بينهما، عاد الرجل متضجراً إلى الزراعات ولكنه أثناء رجوعه نسي ما قاله للفتى!

لمح الفتى خيالاً قادماً إليه في صمت بين الأشجار، فتذكر ما قال له سيده وإذا به يطلق النار على هذا الشبح بدون أن يدري من القادم فيرديه قتيلاً...!!

أبلغ العمدة المركز وتجمعت الناس على الرجل القتيل وأبلغوا زوجته التي كانت تظن أن زوجها بقي مع الفتى حتى الصباح، بأن زوجها قتل فصرخت وذهبت مسرعة إلى مكان قتل زوجها ولكن الشرطة قالت لها: اهدئي حتى نستفسر منك عن زوجك فقاطعهم الصبي قائلًا: أنا من قتله ولكنني لا أعلم أنه سيدي، فقالت الزوجة: نعم إن هذا الصبي لا يعلم فعلاً لقد أخبرني زوجي بذلك أنه هو من نبه عليه أن من يأتي إليه في الظلام يقتله فكان الموت من نصيب من أعطى الأمر بالقتل....

بعد التحقيقات تبين للمحكمة أن الصبي دون السن القانوني للإدراك عقوبة استخدام السلاح وأنه كان ينفذ أوامر سيده خوفاً من اللصوص والحيوانات المفترسة كالذئاب، أمرت المحكمة بإخلاء سبيله فرجع إلى هذه السيدة لخدمتها مرة أخرى فليس له أحد في هذه الدنيا.

مرت السنين وبلغ رزق مبلغ الشباب وهو يخدم السيدة بإخلاص وكانت السيدة على قدر من الجمال ومازالت في بكورة عمرها وكانت مرغوبة وفي

يومٍ من الأيام قال لها الأهل أن وجود هذا الشاب بالمنزل وأنت أرملة وجميلة لا يصح يجب عليك أن تتزوجيه

فقالت: كيف ذلك هل يعقل....!!

تزوجت من رزق ولم تمر إلا تسعة أشهر وقد أنجبت فتاة جميلة مثلها وكبرت البنت حتى صار عمرها خمس سنوات، وفي يوم من الأيام كانت مع أبيها رزق الذي كان قد أحضر معه ملابسه والنقود والعقد في شوال أثناء رحيله من البيت الذي تربى فيه وأخرج العقد والملابس وألبسها لابنته وألبسها العقد، وعندما رأت أمها العقد انهارت ولم تدرِ ماذا تفعل؟...

أخذت المرأة تصرخ تارة وتارة أخرى تضحك بهستيريا وتعاود الصراخ والضحك وهي تشد في شعرها وتقول: (لقد تحققت النبوءة).

****

همسات على موائد الذكرى

انتعل نوح حذاءه المصنوع من جلد خاروف بيد إسكافيّ قد حمله معه على السفينة قبل الغرق، هبط من أعلى السفينة بعد أن استقرت أعلى جبال أرارات والذي كان يدعى فيما مضى بجبل ماسياس.

نزل نوح متوشحاً شالاً له كان قد صنعه قبل زمن الطوفان وقد أصاب الشال القدم والبُلي وتناثرت أطرافه، مفكراً نوح ماذا يصنع على هذا الأرض التي اعتراها الهذيان وأثقلها النسيان.

أنجب جومر وميشيخ بعد زواجهما بنتاً في غاية الجمال وقد أسموها آر وكان جومر يعمل بحرفة الزراعة التي تعلمها من جده الأكبر نوح وكان يجيدها تماماً وكان جومر قد امتلك إلى جانب قلب زوجته الرؤوم من الأراضي الكثير وكانت ميشيخ غزالة للأصواف التي كانوا يصنعونها من صوف الأغنام، وأخذت الحرفة عن أمها والتي بدورها تعلمتها عن أمها أيضاً وفي نفس الوقت كانت تنسج ما تغزل قماش للملابس على نول خشب صنعه لهما جدهم نوح قبل وفاته وكان يعد عندهم من الأشياء الثمينة التي لا تقدر بالمال فهو هدية من جدهم الأكبر.

بلغت آر مبلغ الجميلات واخضر عودها؛ فهي الآن فتاة في عمر الشباب وأقبل عليها الخطاب للزواج منها من أبناء عمومتها وجاؤوا من كل حدب وصوب إلى جومر وميشيخ لاقتطاف الثمرة التي أينعت في حديقة منزلهم العامر، والتي كانت قد اعتراها النسيان منذ فترة ليست بالقصيرة.

جلس جومر يتذكر السنوات الأوائل من عمره في أواخر عهد جده نوح وكيف قضاها في كنفه يتعلم منه كل شيء عن الحياة، حتى اشتدَّ عوده وأصبح من الشباب الأقوياء بالإضافة إلى الحكمة التي تعلمها من جده ولذلك كان الجميع يتسابق إلى نسبه وكنفه، تعلم جومر الكثير عن الزراعة والصناعات البسيطة التي تقوم عليها الحياة حتى أسماء الكائنات من طيور وحيوانات وزروع، وفجأة وبدون سابق إنذار هبط بجواره نسر ضخم مما جعله يلقي بالذكريات خلف ظهره ليعود للحاضر مرة أخرى وكأنه رسول أرسل إليه ليقول له ارجع يا جومر فالحاضر أبقى وأصلح فقد ذهبت الذكريات بحلوها ومرها (فكن ابن الحاضر توهب لك الحياة) عاد جومر إلى الواقع لتفقد موضوعات الحاضر إلى رأسه وأهمها على الإطلاق زواج ابنته الذي دنا أجله فماذا يصنع جومر؟

في فناء المنزل الكبير جلست آر إلى والدتها ميشيخ تتلقى منها الحكمة في التعامل مع الزوج، وتتعلم كيفية صنع الأشياء ومقومات الحياة وكانا يعدا لتجهيزات العرس والفرح وانتقال آر إلى بيتها الجديد على أطراف جبل أرارات، وفجأة دخل عليهما جومر قائلاً: هل تم إعداد كل شيء فقالت الزوجة: نعم يا عزيزي أعددنا كل شيء تقريباً، جلس جومر على أريكة معدة من الخشب واجماً والحزن يعتصره دون أن ينطق بكلمة واحدة، نظرت إليه الزوجة وقالت في نفسها: ما الذي يحزنك يا جومر؟ ومن المفترض أننا في فرح لزواج ابنتنا أيكون حزن الفراق لآر...؟؟ لا لا فليس جومر من يحزنه هذا الأمر فماذا يا تُرى؟!

أطرقت ميشيخ وأخذت تعد الفرش، والملابس لابنتها ومتاع المنزل الجديد ولكنها لا تنسى ما حل بزوجها فماذا به؟

كعادة الحكماء والصالحين تكون لهم رسائل خاصة من الرب تعلمهم بقرب الرحيل ودنو الأجل واقتراب موعد اللقاء مع الله وتلاقي الأحباب في عالم الملكوت الأعلى رحل جومر عن دنيا الأحياء في صمت تام كعادة الصالحين وتبدل الدار بعد الفرح حزناً أخذ بالألباب والنفوس؛ فرحيل جومر ليس بالشيء الهين، وتأجل زواج آر إلى أجلٍ غير مسمى.

رحلت يا جومر قبل أن تشهد زواج ابنتك آر العزيزة يا له من موقف يدمي القلوب ومشهد يضطرب بالنفس ويعتصر الفؤاد بنزول جومر إلى مثواه الأخير فماذا تبقى يا جومر بعد الرحيل؟! أشلاء ممزقة من جسد ميشيخ المتهالك بين الأحياء.

مر الزمان مسرعاً على حافة نهر ماسيان بالقرب من جبال أرارات، ورحلت مع الزمن آر إلى بيت زوجها على مسافة كبيرة من منزلهم حتى أنهم استخدموا الدواب في نقل آر إلى بيت الزوجية مع ميفاس زوجها ولكن ماذا تصنع الأم وقد ظلت وحيدة في منزل جومر لا أنيس ولا رفيق إلا على بعض زيارات من الأقارب على استحياء بين الحين والآخر وانشغلت آر بوالدتها كثير وشغلها التفكير في أحوالها ولكن ماذا تصنع وهذا سنة الحياة ونهجها المفروض على البشر.

بعد فترة من الزمن قالت آر لميفاس:

ـ إن الأرق يكاد يقتلني، والهم يعصف بي.

ـ فقال لها ميفاس: ولمَ يا زوجتي الحبيبة؟

ـ فقالت: على أمي

ـ فقالت ميفاس: لا بد من أن تنتقل للعيش معنا فلا مناص من ذلك.

انتقلت ميشيخ من عش زواجها وحديقة ذكرياتها مع زوج ابنتها لتستمر الحياة من جديد، ولكن حلق البوم فوق العش السعيد ورحلت ميشيخ إلى مثواها الأخير بجوار زوجها جومر، واجتمع الأحباب بعد لوعة الفراق في عالم الملكوت وفي رحاب الربّ لينعم كل منهم بالآخر مرة أخرى.

في دنيا الأحياء تتهدهد آر بوليدها الذي يحيا بجوار القلب منها في سعادةٍ ورغدٍ من العيش ونعيم مقيم في كنف زوجها العزيز ميفاس، وكان ميفاس يغوى الصيد ويرتحل لذلك مسافات عبر الغابات تحت سفح جبل أرارات مع بعض الخدم وأقرانه من الشباب، ولكنه في صباح يوم من أيام الصيد تحرك ميفاس منفرداً وترك القوم نياماً ليصطاد لشدة لوعته بالصيد والقنص ولكن انفرد به أسدٌ جائع فانقض على غفلة من ميفاس فأرداه قتيلاً ولم يفلت من بين أنيابه، علم القوم بمقتله بعد البحث عنه في غابات أرارات ورجع القوم.

لقد ترملت وهي في مقتبل الشباب ونعومة الحياة، في أيام زواجها الأولى فهي لم تنعم برغد العيش إلا أيام قصيرة جداً بعد الزواج ورحل عنها شريك الحياة ما هذا ولماذا يرحل الأحباب من غير سابقة إنذار!! إنها الأقدار تصنع ما تشاء فطب نفساً إذا حل القضاء... ولكن كيف للنفس

أن تطيب أو تنعم بالحياة وقد رحلت عنها أسباب السعادة والحزن يعصف بالقلوب كما تعصف الرياح بسفوح الجبال فتتركها صلداً لا تقدر على شيء مما حملت الرياح على بساطها لتتركنا فراداً في هم ونكد.

كم قُتلت صانعات الخبز على أتون العادات والتقاليد ورحلت مع النسيان لتلتهب ذكريات الماضي على موائد العشاق.

كانت آر تسابق الزمن في البحث عن مكان للاختباء من مصرع محتوم ليسلبها لحظات الحياة في حفرة إلى مثواها الأخير.

وكأن الجسد الملتهب من حر السعي المفرط للاختباء يشعل مرارة الرحيل عن عالم الذكريات.. ولكنها واصلت السعي والمسير إلى قدرها المحتوم هرباً من العادات التي تقضي بموت الزوجة إذا ارتحل عنها زوجها.

رحلت إلى عالم آخر لتتزوج برجل آخر في موطن آخر خلف سفح جبل أرارات ليكون من نسلها أمة أخرى بين صفحات التاريخ.

****

الطريق

في يومٍ من أواخر شهر إبريل عام **1980** في إحدى أحياء القاهرة، حيث أواسط فصل الربيع وتفتح الزهور وتجدد الحياة كانت السيدة رقية تفتح نوافذ فيلتها التي تحيط بها الزهور والأشجار من كل مكان، وتسمع زقزقة العصافير، وتغريد البلابل وهي تعد مائدة الإفطار لزوجها الذي كان يستعد للذهاب إلى العمل لكنه تأخر بعض الوقت فنادت عليه: الإفطار جاهز يا جلال، وأقبل جلال من غرفة نومه وبيده حقيبة يتعثر بالأوراق التي بداخلها فقالت له الزوجة: تناول إفطارك أولاً، ثم جهز الأوراق التي تريد فقال لها: ليس هناك وقت لذلك يا حبيبتي و جلسا يتناولان الإفطار، فقالت له: هل يذكرك الصباح بشيء؟

فغاص به الفكر، ثم قال: آه إنه يوم مهم لي بالعمل فقد اتفقت على عقود جديدة وقبل أن يكمل، رمقته بنظرة حادة ففهم أنه أخطأ فبادرته بلهجة حادة: لقد نسيت كل شيء ما عدا عملك، ألا تتذكر عيد ميلادي؟ فأطرق للحظة، ثم قال: آه لا تآخذيني فرأسي مشوش قليلاً على العموم كل عام

وأنتِ بخير وبهذه المناسبة سوف أحضر من العمل باكراً ونخرج للاحتفال بهذا اليوم؛ فتبسمت وقالت له: لكن إياك أن تنسى هذا أيضاً، فقال: سوف أكون بالبيت الساعة السادسة مساءً لنحتفل وتناول القهوة وغادر إلى العمل.

قالت في نفسها: يجب أن يكون هذا اليوم مميزاً، ويكون ذكرى لا تُنسى فبعد الظهر أذهب لشراء فستان رائع للاحتفال بعد أن أذهب للكوافير وقامت من الصباح تحضر نفسها لذلك وبالفعل ذهبت إلى الكوفير ليعدَ لها تسريحة شعر جديدة وعند عودتها قامت بشراء فستان غاية في الأناقة والروعة.

في المساء جلست رقية تنتظر زوجها وقد دقت ساعة المنزل السادسة ولكنه لم يأتِ، قالت: لعله خير، ربما تعطل في المواصلات ولكن مرت نصف ساعة أخرى ولم يأتِ، وبدأ الشك رويداً رويداً يتسلل إلى قلبها وفجأة رن الهاتف؛ فذهبت إليه مسرعة: ألو... من معي فسمعت صوت رجل يقول: هل هذا منزل السيد جلال؟ قالت: نعم هو ذاك. فقال: لقد وجت حقيبته ملقاة على الطريق، فأخذتها رعشة وسقطت منها سماعة الهاتف للحظات والرجل يقول: ألو.. ألو... ولكنها سرعان ما استفاقت من غفوتها

وأمسكت بالهاتف مرة أخرى لتسأل الرجل: ماذا جرى يا سيدي؟ فيقول: أنا لا أعلم ولكن وجدت رقم الهاتف الخاص بكم لذلك اتصلت. فقالت: وأين جلال؟؟

فقال: حقيقة لا أعلم، أنا وجدت الحقيبة التي بها الأوراق فقط. فقالت له: أرجو إحضار الحقيبة على العنوان الموضح بداخلها. فقال الرجل: فهمت فقالت له: شكراً لك. وأخذت الأفكار تتسارع إلى مخيلتها، ماذا عسى أن يكون؟ ومرت اللحظات مسرعة ولكن لم يأتِ فعرفت أنه قد حدث شيء مريب أو أنه نسي موعدهم.

ولكن هيهات لا بد أن أتصل على المكتب حتى أنظر ماذا جرى فاتصلت فإذا به يرد. فقالت: الحمد لله لقد انخلع قلبي عندما اتصل بي شخص ليبلغني بوجود الحقيبة الخاصة بك ملقاة على الأرض؛ فقال: لا تقلقي لقد تعطلت العربية واضطررت لأخذ تاكسي أثناء عودتي من المحكمة وربما خاف السائق فألقاها من التاكسي حتى لا يضطر لإحضارها لي وذهبت به الظنون فظن أنني أبلغت عنه الشرطة، فقالت: الرجل الذي وجدها سوف يحضرها، فقال: الحمد لله لأن بها أوراق مهمة، كنت سوف أتعب للحصول عليها مرة أخرى، فقالت له: لا تتأخر عن موعدنا. فقال: بإذن الله.

ولكنها انتظرت مدة ليست بالقصيرة ومضى أكثر من ساعة ونصف في انتظار أن يأتي، ولكنه لم يأتِ ومرت ساعة أو أكثربعد ذلك ولم يحضر في الموعد المحدد؛ فقالت في نفسها: لا بد أن ألقنه درساً قاسياً.

فقامت بغلق النوافذ والأبواب وأبلغت الشرطة بأنه يوجد شخص يريد أن يقتحم عليها الفيلا وتريد تأمين ذلك خوفاً على حياتها، وبالفعل حضرت الشرطة واختف عناصرها بين الأشجار في انتظار المعتدي المجهول وبعد فترة من الزمن حضر الزوج ليفتح الباب وإذا بالشرطة تقبض عليه وأخذ يسأل ماذا تفعلون؟ ولكن لم تستمع إليه الشرطة فأخذ يصرخ أنا صاحب هذا البيت، ومن بالداخل زوجتي ويمكنكم طرق الباب وسؤالها، أنا زوجها وبالفعل قامت الشرطة بطرق الباب ولكن كانت المفاجأة.

عند فتح الباب سألتها الشرطة هذا الرجل يدعي أنه زوجك هل هذا حقيقي؟ فقالت: لا أنا لا أعرفه أبداً هذه أول مرة أراه بها. فصاح: كيف تقولين ذلك. فقالت وهي تنظر إلى رجال الشرطة: حقاً لا أعرفه.

وعندما تولوا به قالت: إنه زوجي ولكن كان اليوم هو عيد ميلادي وقد وعدني أن نخرج ونحتفل ولكن نسي كعادته؛ فأردت أن أجعله لا ينسى

هذه اللحظة أبداً، فضحك رجال الشرطة وغرموها مبلغاً مالياً نظير إزعاج السلطات والبلاغ الكاذب، وذهبوا تاركين الزوج والزوجة.

حقاً إنها لحظة فارقة في حياة الزوج لن تُنسى مرة أخرى.

****

وعدٌ وهدية...

توجها بهدية العيد إلى منزل الجدة وهما في الطريق قال كريم لمحمد: لماذا لا تقيم جدتنا معنا في منزلنا، أليست جدتنا ونحن نحبها؟؟ فقال له محمد: نعم ما رأيك لو جعلناها تأتي لتعيش معنا ولا نعطيها الهدية إلا في منزلنا؟! فقال كريم: وكيف نفعل ذلك؟ فقال محمد: دع هذا الأمر لي...

طرقا الباب ففتحت لهما جدتهما واحتضنتهما معاً، وقبلتهما وقالت: هل أحضرتما لي هدية؟ فنظر محمد إلى كريم وقال: لا... إننا جئنا على عجل لأن أمنا تعبت فجأة وتريد أن تراكِ. فقالت الجدة: انتظرا لأعود معكم.

وعلى عجل أسرعت الجدة في ارتداء ملابسها وذهب الجميع إلى المنزل وطرقا الباب وكانت المفاجأة...

فتحت الأم الباب فقالت الجدة سلامتك يابْنتي ما بكِ وهي تخطو خطوات إلى داخل البهو المؤدي إلى صالة الجلوس، وقالت البنت متعجبة: خيراً يا أمي أنا بصحة جيدة كل عام وأنتِ بخير لماذا تقولين هذا؟

فنظرت الجدة إلى الولدين اللذين تسمرا لدى الباب وأحسا بما قالا...

فقالت الجدة: تعالا إلى هنا لماذا ادعيتم أن أمكما قد تعبت فجأة؟ فنظرا لبعضهما وآثرا الصمت. فقالت الجدة: إن لم تتحدثا لسوف أعاقبكما على هذه الفعلة...

فقال محمد: ليس لكريم ذنب ولكن أنا قُلت ذلك حتى تأتي وتعيشين معنا يا جدتي فنحن نحبك كثيراً ولا نريدك أن تكوني في هذا المنزل بمفردك لماذا لا تعيشين معنا؟ فنظرت الجدة إلى ابنتها وتبسمت وقالت: يا أحفادي الأعزاء إن هذا المنزل الذي أعيش فيه لدي به ذكريات جميلة وقضيت به معظم أوقات حياتي فهو مملكتي ولا أستطيع أن أتركه ولكن كون أنكما تريدان أن أعيش معكم فنحن نتزاور فيما بيننا والمنزل ليس بالبعيد وأنتم تأتون لي وأنا أقوم بزيارتكم كل فتره ولكن أعدكم أن تتقارب فترات زيارتكم وتزيد بشرط واحد. فقال الاثنان بلهفة في نفس واحد: ما هو يا جدتنا؟

قالت الجدة: أن تعداني ألا تكذبا مرة ثانية فإن الكذب حرام ويدخل الإنسان بسببه نار جهنم، هل تعدانني؟

فقالا: نعدك يا جدتنا أن لا نكذب مرة أخرى.

****

ما أصعب السنن

جاءت إليه على عجل قائلةً: لماذا تفعل كل هذا؟ لماذا تكلف نفسك ما لا تطيق؟ كل هذا لمن!؟ لقد هجرونا أتعتقد أنهم للغروب عائدون؟ فنظر بعينيها وتساءل: كيف بنا الحال؟ فالتفتت والحسرة تملأ عينيها قائلةً: على ما ترى من رقصات الليالي على أوتار الذكريات، فيوم مسرور وآخر محسور وقليلاً مجبور! لقد رحلوا مع مواسم الربيع تاركين الحنين بين الضلوع وتستعر النار في أتون الصدور فيا عجباً بعد المشيب لا سند إلا العود ولا بسمة ترقد فوق الشفاه! ولكن لمن تمهد الأرض وتتكلف العناء؟ وتطيب الأمتعة والفرش بين صمت الدور ورحيل الحياة؟ لقد هجرت العصافير الشجر! ولم تعد للعشوش وشوش! فتنهد بوجع السنين وألم الحيارى في ليالي المشتاقين قائلاً: ربما عوداً بعد الرحيل أو ربما تستهويهم مواطن الربيع على أفنان الشجر!! فضحكت بسخرية القدر، قائلةً: كيف بك الاغتراب؟ فقال: لمحات من خاطرتك نام فكري، وبما يستشعر قلبك وجد الحنين لبسمات الصغار يحترق وجدي، فأردفت: لكنها سنن الحياة

فالأقدار تفعل ما تشاء، فتمتم والألم يعتصر الفؤاد: ما أصعبها من سنن.... وفجأة....

شعر جلال بيدٍ تلامس مؤخرة كتفه لقد كان غارقاً في أحلام اليقظة ليفيق على صوت يقول له: حضرتك رحلتك يتم المنادة عليها من إدارة المطار.

لقد كان متجهاً إلى الإمارات لاستلام جثمان ابنه الذي وافته المنية ولم يشاهده منذ عدة سنوات.. فقال بصوت سمعه الرجل الذي أيقظه.. حقاً ما أصعبها من السنن!!.

****

لحظات صدق

أتذكر صورة والدي كلما هممت أن أتشاجر مع أحد رفاقي وزملائي فقد كانت ملامحه تتغير بملامح عدم الرضا ولقد دعاني يوماً وقال: تعالَ معي فقلت: إلى أين يا والدي؟ قال: إلى رحلة قصيرة، فقلت بسذاجة الأطفال: هل سنذهب إلى الملاهي والحدائق؟ قال: شيء أروع من ذلك، وركبنا عربة لنا وتوجهنا إلى المدينة وكانت تملؤني البهجة والسرور، فأول مرة يذهب بي والدي في رحلة ولكن رأيته يدخل في شوارع المدينة شارعاً تلو الشارع فارتابني شك، ولكن آثرت الصمت وفجأة وجدت نفسي داخل فناء كبير في مستشفى المدينة، فقلت له: لمَ نحن هنا يا والدي؟! فقال: سوف ترى وصعد بي الدرج للطابق الثاني، وكانت المستشفى تعج بالمصابين والناس ورجال الشرطة وبعض من رجال القوات المسلحة ونسمع ونرى سيارات الإسعاف دويها يملأ المكان، تحضر مصابين وموتى أحياناً، فأهالني الخوف والرعب من هذه المناظر البشعة، فقلت: يا أبي ما هذا لماذا كل هؤلاء المصابين والموتى؟ قال: اصبر يا بني فالأمر جلل. ولمحت أسرة صديقي الذي كنت أتشاجر معه دائماً ينتابها الرعب والخوف وينهار بعض أفرادها من

البكاء، فقلت: انظر يا والدي هذه أسرة جلال، فقال لي: نعم يا بني، فلقد جاء ابنهم مصاباً ومبتورة إحدى أطراف قدميه، فقال لي والدي: هيا لنكون إلى جوارهم ونآزرهم في مصابهم يا بني، فقلت:

ـ لا.. أنا متشاجر مع ابنهم يا أبي. لقد اعتديت عليه بالضرب أمس.

فقال لي: يا بني ألا ترى ما نحن فيه يا بني إنها الحرب لا تبقي ولا تزر فتعلم أن تكون نافعاً للناس ولنفسك متسامح تشمل الناس بالعطف والرعاية لا المشاجرة والنكاية علينا أن نتعاون لا أن نتساجر علينا أن نساعد بعضنا البعض لا ندمر بعضنا بعضاً يا بني لعلك تكون قد فهمت الآن سبب الرحلة.

****

دهشة

في كهوف النسيان، كانت تقطن فتاة من أسرة فقيرة، نشأت وترعرعت لتشب؛ لترى نفسها الكبيرة لثلاث أخوات بنات وليس لها أخ ولد فتحملت مسؤولية الحياة منذ نعومة أظفارها وعبء الحياة عن والدها الذي كان قد تقدم به العمر ولم يعد يستطيع تحمل أعباء الحياة، وكانت الفتاة متوسطة الجمال ولكنها كانت ذات قوام ملفوف يغري الرجال، وكانت تذهب لسوق لشراء مستلزمات المنزل وبيع منتجات الألبان التي كانت تصنعه بمنزلها هي وأمها، مرت الأيام وفجأة وبدون سابق إنذار حلت بها الأقدار وجاءتها أختبار الزمن تقدم عريس لأختها الصغرى بعد زواج لم يكتمل لها وكان حبراً على ورق؛ فكانت تبحث في السوق عن طبلية خشب لأختها حتى تكتمل عفشة الفقراء، وباغتها أحد الشبان من خلفها هل تبحثين عن طبلية؟ فقالت بتلقائية: نعم، فقال لها: نحن نبيع أفضل أنواع الطبليات، ولكن في المحل الخاص بنا على مقربة من هنا، هل يمكنك المجيء معنا لتري بنفسك؟! وبحسن نية وافقت دون تفكير لسذاجتها المعهودة.

تحركت معهم لترى نفسها فوق عربة ربع نقل، خارجاً مخلفة السوق وراءها بعد أن عهدت لأحد الباعة في السوق بما معها من حمولة وكان السوق على مقربة من الصحراء المستصلحة خارج المدينة، لم تشك الفتاة في بادئ الأمر في شيء ولكنها شيئاً فشيئاً تسربت مشاعر القلق والخوف إلى نفسها عندما شاهدت العربة تتجة نحو الزراعات المستصلحة، ورأت العشش المتناثرة هنا وهناك، ولم تجد مبانياً أو محلات على مسافة قريبة غير صحراء مترامية الأطراف وهي واقفة متكئة على كبينة السائق من الخلف ثم نظرة بعينها من الزجاج الخلفي لسيارة فرأت الشابان يتبادلان السجائر ويضحكان بصوت مرتفع لا يكاد يظهر بصوت العربة المرتفع ونظرة الظفر تخرج من أعينهم كالذئاب التي ظفرت بالفريسة.

تطايرت الأفكار الشريرة إلى رأسها وهي تحدث نفسها: وماذا بعد ماذا لو كان؟!! كيف تتصرفين؟ لماذا لم تفكري؟ آه إنها نهايتك المحتومة وقدرك العنيد.. ماذا تخبئ لكِ الأيام؟ وفجأة وبدون سابق إنذار إلا وأقدامها تسابق الريح رجوعاً للوراء، بعد أن قفزت منها وكأنها لم تشعر بارتطامها بالأرض ولكن لحسن الحظ لم يتنبه الذئبان إلى غيابها وأخذت تجري حتى أنهكها التعب، واقتربت شيئاً فشيئاً من منزل قريب للصحراء وأخذت في طرق

الباب بكل ما تبقى لها من قوة وأنفاسها تلهث من التعب وفتحت الباب لها سيدة في الأربعينيات من عمرها والذي أفزعها المشهد؛ فنادت على من في الدار وأجلستها بصحن الدار اجلسي يابْنتي ماذا بك؟ هل أنتِ هاربة من أهلك؟ هل يوجد من يطاردك؟ ماذا جرى لك؟! كل هذا وأنفاسها المقطوعة وجسدها المنهك والمتراخي من التعب والخوف، لم يلهمها للرد ولكن بتقطع وتلعثم، قالت: سوف أخبرك يا خالة صبراً صبراً.

تفقدت شابة في المنزل الطريق وراقبت المكان يميناً ويساراً؛ لتشاهد من خلفها ولكن لم ترَ شيئاً، ولم تسمع صوتاً قريباً يبشر بقدوم أحد، وهذا ما جعل الموقف يزداد غرابة لدى أهل المنزل وفجأة قالت الفتاة يا خالة سوف أقص عليكِ ما حدث وأخذت في سرد الموضوع.

قالت السيدة التي تجاوزت الأربعينيات من عمرها: لن أتركك ترحلين بمفردك، سوف أذهب معك وأرافقك إلى السوق، وذهبت الاثنتان إلى السوق والذي كان لا يبعد كثيراً عن منزلها ودخلتا السوق وكانت المفاجأة!!

لقد شاهدت الفتاة الشابان يقفان داخل السوق على مسافة ليست بعيدة عن بوابة السوق وصاحت الفتاة: ها هما الشابان يا خالة اللذان أخذاني هناك، والتفتت الخالة إليهما ولكن سرعان ما جريا واختفيا عن الأنظار

ولكن السيدة وقفت مشدوهة ولم تنطق بكلمة واحدة، وبدت عليها علامات الإندهاش الشديد عندما وقع نظرها على هذين الشابين!

****

سَنَابِلُ الحصَاد

تتراءى لنا الأيَّامُ في رحلةِ الحياةِ المليئةِ بِالأحدَاثِ، كأنَّها قِطَعٌ من الأَحْجَارِ المتراصّة في الطَّرِيقِ كحَجَر عَثْرَة تعرقلنا عن أهدافنا التي نَسْعَى وراءَها في أتُّون الواقِع الملتهب بَيْن المُمْكِن والمُسْتَحِيل.

كانَت تحدثُ نفسها بهذهِ الكلماتِ، عندما اصتدمت فجأَةً برجُلٍ في السبعينيات مِنْ عُمْرِهِ؛ فأَسرَعتْ تَقُولُ له: متأسفة جداً يا أَبَتَاه لَمْ أنتبه، فنظرَ إليها نظرةً فاحصةً، وهو مُتَّكِئٌ على عَصَا له يَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا، وقَالَ لَهَا: عبير يا بْنتي «الحُبُّ كأسٌ يُسْكِرُ العَارِفِينَ بِه... فاشربي على مَهْلٍ»، فَنَظَرْت إلَيْهِ بِاستِغْرَابٍ!! كيفَ عَلِمَ اسمَها وغشاها التَّفْكِيرُ، ورَحَلَ العَجُوزُ عَنْهَا وعندما أفاقَتْ مِن تفكيرها لِتَنْظُرَ إلَيْهِ مَرَّةً أُخْرَى على بُعْدِ خُطُوَاتٍ مِنْهَا، لَمْ تَجِدْهُ فَأَخَذْت تَلْتَفِتُ في جمِيع الاتِّجَاهَاتِ ولكِنْ تَبَدَّدَ في لَحَظَاتٍ وكانَ الهَوَاءُ مَرَّ بِجَانِبِهَا؛ ليداعب سمعها بحفيفه، ورَحَلَ ولكِنْ كلماته لَمْ تَزَلْ في مسامعها كأَنَّهَا وَقَعُ طَبْلٍ.

لَم تَغِب عَنْ مخيلتها كلِمَات العَجُوز ولا الطَّرِيقَة التي خَاطَبَهَا بِهَا وكذَلِك رَحِيلِه المفاجئ، كأَنَّه البَرْقُ الخاطِفُ وأَفَاقَت على كلِمَاتِ أُمِّهَا: آية ما كُلُّ هذا

التَّفْكِير يا بْنتي؟؟ «اللي واخد عَقْلِك؟؟» فَقَالَتْ: يا أمي لقد حَدَّثَ أمرٌ في غايةِ الغرابةِ وأخَذَتْ تَقصُّ على أمها ما حَدَثَ، وبَعْدَ أَنْ انتهت مِن السَّرْدِ قَالَت الأُمُّ: لَعَلَّهُ خيرٌ يا بْنتي.

ولكِنْ عليكِ أَنْ تتجهزي؛ فالليلة سوف يزورنا أقرِبَاءٌ لنا، وعليكِ أَنْ تكوني في أبهَى حِلّة وأَجْمَل صُورَة. قالت ذَلِكَ الأُمُّ وهي تُغَادِرُ حُجرة ابنتِها.

فَقَالَت البنت: سمعاً وطَاعَة يا أمي.

على عَجَّلٍ تَمَّت العُهُودُ والمَوَاثِيق بِدُونِ أَنْ يَعْلَمَ العَروسان الكَثِير عَن بعضِهما، وكانَت مُفاجأة كبيرة للبنت التي لَم تَعْتَرِض علَى هَذَا الزَّواج، رغم أَنَّهَا مُتَعَلِّمَة ويجب علَى الأقَلِّ أنْ تَأخُذَ فترةً للتفكير والتروى، ولكِنْ هي الأَقْدَارُ تلعبُ دورها في مجريات الأمُورِ وتسيرُ بنا إِلى الطَّرِيقِ المَحْتُوم لنصتدم بِالأحجَارِ المتراكمةِ في مشاهدِ الأيَّام.

لَمْ يستمر زواجُها وقتاً طويلاً، حَتَّى قَرَّرَ الزَّوجُ السَّفَرَ إلى إحْدَى الدُّوَلِ العَرَبِيَّةِ للعَمَلِ، وفعلاً تَركهَا وحيدَةً في خِضَمِّ الأيّام تقاسي لَوْعَة الفِرَاق.

اِختَلَطَ الحَابِلُ بِالنَّابِلِ وهَاجَت المَيَادِين بأُنَاسٍ كالسَّيْل المنهمر، وامتلأت الشَّوَارِعُ الفَارِغَة بِالنَّاسِ، تُطَالِبُ بِرَحِيل النِّظَام وأَصبَحت البِلَادُ بَيْنَ لَيْلَةٍ

وضُحَاهَا تعُمُّهَا الفَوْضَى الخلاقة، والموتُ يَطالُ الجمِيعَ وخَاصَّة الغُرَبَاء؛ فَقَالَ فِي نَفْسِهِ: أحَاوِلُ أَنْ أجمعَ بَعْضَ المَالِ حتَّى لا أعود خاوي الوِفَاض إلى بلدي ولكِن صابته رَصَاصَةٌ طائشةٌ عِنْدَمَا كَانَ يُحَاوِلُ سَرِقَةَ مَحَلِّ مجوهرات ليُلقى فِي الشَّارِع جُثةً هَامِدَةً.

جاءها النَّبأُ عبرَ السّفارة المِصرِيَّة، التي أَرْسَلْت تَبلّغُ أَهلَه لتَلقي جثمانه.

انْتَهَتْ مَرَاسِمُ الدَّفْنِ على عَجَّلٍ، وانتابها الحزنُ الشَّدِيدُ وهي جَالِسَةٌ علَى قَبْرِهِ بَعْدَ أَنْ تَرَكَهَا الأَهلُ والأَحْبَابُ؛ لتتزود مِنْ قُرْبِهِ، حَتَّى بَعْدَ الرَّحِيل غير المَنْظُورِ فِي عسرات الأَحجَار التي نصتدم بِهَا فِي رحلة الحَيَاة.

طَالَ بِهَا الْجُلُوسُ والِانْتِظَارُ هي ووليدها، الذي أنجبته ولم يلمح أباه ولو لمرة وَاحِدَةٍ، وفَجْأَةً أَحَسَّتْ بيدٍ تَربَتُ على كَتِفِهَا، وتَقُولُ لَهَا: أَلَمْ أَقُلْ لَك يَا عَبِير أَلَّا تسجعلي، فالتفتت في جَزَعٍ: مَنْ أنتَ؟ فَقَالَ لَهَا: أَلَّا تتذكرين؟!

فَمَسَحْت دُمُوعَهَا وهي تتفحصه، وقَالَتْ فِي تَعَجَّبٍ للعَجُوزِ: مَنْ أَنْتَ؟؟

فَقَالَ: لَا يَهُم مَنْ أَكُونُ... ولكِن لِمَاذَا لَمْ تأخذي بنصيحتي؟ فَقَالَتْ: يا أَبَتَاهُ إِنَّهَا أَحْجَار عسرة، إِذَا لَمْ نَذْهَبُ إِلَيْهَا جاءت هي إِلَيْنَا... فَنَظَر الْعَجُوز إِلَى السَّمَاءِ فِي تَأَمَّلٍ مَلْحُوظٍ، وقَالَ: نَعَمْ «إِنَّهَا الْأَقْدَار».

****

جميلات على أبواب العنوسة

رحلت الذات في أفنية الثكنات القابعة خلف دهاليز السكة الحديدية، حيث يقع منزلنا العامر في عالم الذكريات في الأيام الخوالي ترتحل بي كل حين إلى مرارة الزمن ورعونة الذكريات لقد كنت جميلة الجميلات كما كان يحلو لهم أن ينادوني ولكن انظر لي الآن فقد ذبل العود وجف الجلد ولا أنيس ولا رفيق بعدما كانت تدور الأيام على منحنيات الجيد ويطالعني الشباب على الطرقات بأندى كلمات الغزل.. آه.. لو تعود الأيام ويعود الشباب والغرام ورفقة الماضي ورغبة الحياة ولكنها العنوسة رفيقة دربي على موائد الذكريات فهيهات يا متكبرة أن يعود الزمن إلى الوراء فموتين بكبريائك بين الوحدة والضجر.

****

أحلامٌ ضائعة

من الوهلة الأولى فتى يتبادل نظرات الحب الدافئة، وفتاة في محل بين أرفف المبيعات، وأدلفُ متوجهة إلى قسم المشتريات لبعض مستلزمات منزلي ولكن مع وهج الحب الدافئ في نظرات العشاق جعلتني تلك النظرات أتذكر أيام شبابي مع رفيق عمري ولكن هل يا ترى ماذا الحب يؤرق العشاق في ليل الوحدة؟

لاحظت العشق يتدفق من حنايا القلوب مما جعلني أتصنع الشراء فما أجمل من مشاهدة الحب بين حبيبين طرح الهوى قلبيهما على موائد العشاق، أنهما يتبادلان النظرات خلسة على استحياء من نظر العزال في حياء، وتعلو وجهيهما ابتسامة ممزوجة بالحنين، وتكسر في أجسادهم تنتفض له أجسادهم، وتخبوا معها نظراتهم لتعاود النظر من جديد.. آه إنها سكرة الحب في لحظات تقتطف من عمر الزمان.

لكن لم يستمر المشهد طويلاً بين الروح والجسد على أزقة الحنايا بين أرفف محل الشراء أو قل أرض الذهور المتفتحة للحياة.

إنني أشاهد البضائع تغمز لبعضها في سر مكتوم عن العاشقين في ردهة محل المشتريات.

ها هي أم الفتاة تلفت نظرها بأنهما يجب أن يغادرا المكان بعد إتمام عملية الشراء.

لكنني لم أحتمل شهوة الصبر على مشاهدة البقية من قصة العاشقين، بعدما رأيت الفتى يرسل نظرات الحنين والاشتياق وألم الفراق بعد مع رحيل الأحباب، فأجلت الشراء وذهب خلفهم لأشاهد البقية وإذا بالفتى يتتبع المحبوبة دون أن تشعر والدتها به وهي تختلس النظر بين الفينة والأخرى خوفاً من رحيل العاشق قبل النظرة الأخيرة والتي تنبئ عن الانتظار للموعد القام.

رحلت الأيام مسرعة معلنة صيف الأيام على رحلة الأيام بليل العاشقين بعد برهة من الزمن وأثناء زيارتي لنفس المحل لشراء وإذ بي أشاهد الفتاة وقد علاها الهم وحزن السنين؛ فاقتربت منها وتعرفت عليها ونحن نتجاذب أطراف الحديث بعد أن أطمأنت لي، قُلتُ ممازحة: لعل الأولاد يرهقونك فاومأت برأسها بأنها ليس معها أولاد، فقلت ألم يكن لك خل وحبيب فقالت: غدر الحبيب بعد أن نال مني ورحل، تركني لغدر الأيام ومرارة

الخطيئة؛ فقولت: لقد كان يبادلك الحب والحنين، قالت: لقد كان له غرض ناله باسم الحب ورحل وأنا على مائدة الحرمان بجهلي وغروري أكابد الألم مع سنوات عمري التي انقضت.

****

حب وكبرياء

كان صباح يوم دافئ من أيام الشتاء في شهر فبراير وكان يعبر الطريق على مشارف منزلنا ليقلقي نظرة عابرة لنافذتي في بداية الأمر لم ألقِ لها بالاً فالجميع ينظر ويمر ولكن مع تكرار المرات ومداومة المرور صباحاً ومساء أيقنت أنها ليست نظرة عابرة.. ما هذا أيتها البلهاء أتتعلقين بنظرات عابرة في الصباح وفي المساء.. ولكنني أشعر بالسعادة تغمرني عند قدومه من بعيد وعندما تلتقي عينانا أذوب من الاشتياق أيكون هذا الحب المحكي عنه في رويات العشاق؟!

مرت الأيام مسرعة في زمن العشق الممنوع ولكن ماذا نفعل بالحنين في ظل العادات والتقاليد.

همس لي عن قرب: إن هذا اليوم هو أسعد أيام حياته هل هذا حقيقي أم ضرب من ضروب الخيال في عالم الأحلام؟!! فقلت: لا بل حقيقة وواقع معاش. فقال: كم الوقت نتبادل النظرات على طريق العاشقين قلت: من سنين؛ فقال: يا للعجب!! ومازال مشتعلاً بي الحنين على موائد العاشقين

فمتى الوصال في ديار الراغبين؛ فقلت: من كم ننتظر قدومكم على صبر السنين؟!

بعد حين قوبل عشق السنين برفض من أهل ديار العاشقين كبراً وتعنتاً وتسلطاً، وظللت على العهد باقية عمري أتطلع إلى قربه من جديد لكن غابت الشمس وأتى المساء على عجل وسكنت الوحدة قلبي على مر السنين لقد علق حبه بقلبي فأبى القلب أن يفتح لغيره من جديد.

****

سر العطاء

إذا كانت الرحلة إلى الثغر الأغر؛ فحق لنا التزود قبل الرحيل بوشاح نورٍ في دروب السالكين... فعبثاً سيدتي الرحيل بغير زادٍ في بلاد العشق الممنوع على أفنية حانات بائعات الخمر في دروب السالكين.. فمتى كان بيع النبيذ لقلوب قد أسكرها الهوى في أقبية الدراويش في حضرة سيدهم؟!... لكن أن لم يكن للرحيل بديل فيجب على المرتحل اختيار الصديق فلربما طال بنا الرحيل إلى قصر الشوق على بساط السندس الأخضر برفقة العذارى في رحلة النسيان فقاطعته قائلة: ولكن (أليس بضدها تتميز الأشياء).

منذ أكثر من ثلاثين عام ذهب خلف التلال والوديان هرباً من فقره المدقع إلى أرضٍ قاحلة جرداء لا زرع فيها ولا ماء يحمل على عاتقه الزوادة من الماء والطعام.

التجأ إلى غارٍ يأويه من وهج الصحراء الملتهبة، نظف المكان ونثر بعض الماء على الأرض ليلطف من حر المكان ولكن فجأة باغته ثعبان عملاق يسكن المكان ولكنه لم يهاجمه بل لجأ للماء ليروي ظمأه فنثر له الرجل بعضاً من طعامه، بيضة دجاج كان قد أخذها معه.

ارتوى وأكل وعزم على الرحيل؛ ليفسح المجال للضيف الذي جاء يشاركه في بيته ولكن قبل الرحيل كانت الهدية بيضة من الذهب الخالص ساقها الثعبان للرجل الكريم.. هل حقاً يقابل الكرم بمزيدٍ من العطاء، أم إنها إرادة الله التي أرادت لهذا الفقير الرجوع إلى الحياة.

كان السر بينه وبين نفسه يقدم الماء والغذاء؛ فيُعطى الذهب واستمر الحال على هذا السخاء حتى كان اليوم المعلوم، أراد الرجل الذهاب إلى ديار الإيمان ليقدم الشكر لرب الأرض والسماء على عطائه الممدود بغير حدود ولكن من على السر يؤتمن، فكر وطال به التفكير، فقال: ليس آمن على السر من ولدي، أخذه إلى الغار وشرح له الوضع على الدوام وحذره من البوح بالسر أو إيذاء من يجود بالعطاء.

ذهب الرجل لرحلته الإيمانية بعد أن أعد الرحال والزاد لرحلته التي تستغرق شهوراً وأياماً.

قال لنفسه: لا يوجد مكان أفضل من هذا لأتدرب على اللعب بالعصا وأكون من بين القلائل في بلدتي الذين يجدون اللعب بها، أخذه عمر الصبي ورغد العيش إلى النسيان بأنه ضيف على المكان ولم يراعِ حرمة الضيافة فضرب بعصاه الأرض فصابت من صاحب المكان مؤخرة الذيل؛ ففصل عن

الجسد فمان كان منه إلا أن هاجم الضيف بكل شراسة وأفرغ سمه في جسده فأرداه قتيلاً في لحظات.

عاد الرجل من رحلته الإيمانية ليسأل عن ابنه فقيل له: من بعد أن سافرت في رحلتك خرج ولم يعد إلى الآن؛ فعلم الرجل أنه قد حدث أمر جلل.

حمل الزاد والماء وذهب للصديق في سرية تامة، كما كان يفعل قبل الرحيل ولكن وجد ابنه يرقد على وجهه قتيلاً، حزن حزناً شديداً عليه، ولكنه نثر الماء ووضع الطعام ولكن لم تقدم الهدية؛ فعلم أنه الفِراق، حمل ابنه على ظهره وعاد بغير زاد.

نظر إليه وهو على الأريكة قائلاً: حقاً.. بضددها تتميز الأشياء.

****

لعبة الأقدار

كأن القدر رصد له مواسم الاختبار كان الرجل يعمل بجدٍ واجتهاد في موقعه بين صفوف القوات والتي كان يشغل الشؤون الإدارية بالموقع وكان يجتهد بقدر الإمكان ليسود العدل بين الأفراد ولكن الرياح تأتي بما لا تشتهي السفن فقد أراد قائد إحدى السرايا أن يكون له ولسريته نصيب الأسد من تعينات القتال ولكنه رفض لتحقيق العدل بين الأفراد.

مكرها له وعندما حانت الفرصة لم يتوانَ في تلفيق التهم له والزج به في غياهب السجون دون وازع من ضميرٍ أو عدلٍ من قضاء.

بعد شهور انفضت الحرب وانتهت مدة الحبس للمظلوم عاد إلى موقع القتال ليرى ويسمع أن الموقع دمر عن آخره وكانت السبب الثغرة التي تسببت فيها السرية الأولى وقائدها الذي قتل وخسرنا الحرب فتبسم ضاحكاً من لعبة الأقدار.

****

رحمٌ ممزقٌ

يقول المثل: (مفلس بنى دار، طامع سكن فيه) هكذا تدور رحى الأيام بين ظالم ومظلوم، بين خيراً وشرير، بين غالب ومغلوب.

كانت الدنيا تملأ جوانب النفس منه والأطماع تحركه يمنة ويسرى يخوض أعتى الصراعات من أجل مطامع النفس وهوى الذات تنهار معه العلاقات بأقل القليل لا يعبأ بحب الناس أو كرههم فالمسألة عنده سيان.

رزق بطفلة وكانت غاية في الجمال ونقية مثل حليب الصباح كان يعلم مقدارها في نظر الناس كان شديد الحرص عليها، استمرت الأيام أقعدها من الدراسة وتعطلت أسباب الحياة، عانت من الوحدة ومرضت نفسيتها.

وزوجها كان يعلم أنها لا تقوى على الزواج، وليست مؤهلة لترعى زوجاً وتنجب منه أطفالاً، طمعاً في الهبات المقدمة أنجبت ولم تستمر الحياة رجعت إلى باب الطمع من جديد لتحتسي الأمريّن المرض ومحبس العادات والتقاليد على أرض الأطماع وحب الذات.

أخذ منها كل شيء من مستحقاتها وعاملها كجارية بلقمتها وأهمل وليدها فهام الطفل بعد أن وعي على وجهه بين الدروب ليستغل الناس بالسرقة والنصب.

****

المصير

جثا على ركبتيه يخامر الذكريات وفجأة أمسك بسلاحه يريد أن ينتقم منه على ما بدر منه في الأيام الخوالي؛ فلقد شد منه الوثاق فأين المفر؟؟ لا بد من الانتقام وقتل الحسرة والندامة داخل قلبه ولكنه سمع صوت يناديه من داخله تمهل فنظر من نافذة منزله على الشارع فوجد الأعداء قد أحاطت به من كل مكان.. ففك وثائقه التي كان قد قيده بها.. وجلسا ينتظران المصير المشترك.

طال بهم الانتظار ولم يطرق الباب طارق من عدو يريد الانتقام؛ فلقد تجرع الأعداء مرارة الهزيمة من حليف ينتظر قدومهم على أبواب الذكريات فهم من رقدته ليواجه الحياة.

****

سبحات الذات

كانت أيامه كحلم ضائع بين جنبات السراب؛ فلقد هوت به الأقدار في مفترق طرق لا يستطيع بأيهم يبدأ، الرحيل وقطعاً لا يستطيع الرجوع فأنفاسه أصبحت مقطعة، ولونه أصبح شاحباً كزهرة عباد الشمس في وسط النهار.

هل أنقضي العمر أم أنه ما زال به بقية من سراب..

كانت تطرق رأسه الذكريات كما يطرق الحداد قطع الحديد على صولجان أتون ملتهب.

قال لنفسه: أما يكفيك العمر ترحالاً وحرماناً وغربة أوطان فهل مكثت قليلاً عن الترحال.

كان البحرُ عالي الأمواج ولكن ربان السفينة كان بارعاً في السير على الأمواج ورغم تقاذفها للسفينة يمنة ويسرى عَبْرَ جبالٍ من الأمواج لكنها صمدت وتحملت صراعات الأمواج وقربت من نهاية الرحلة إلى شواطئ الأمان.

لكن غدر الزمن يأتي بالمفارقات على أبواب الملذات بقرب دنو العصفور من عش الأحلام في مواسم الربيع.

تشبث بقارب النجاة بعد تحطم السفينة امتلأ البحر بالجثامين إلى مثواها الأخير دون أن يعلموا حقيقة الحياة وهل هي حقيقة أم ضربٌ من فتات الأحلام في عالم النسيان وهل حقاً أنهم ماتوا وكيفية الموت بين جوانب الحياة فالماء هو السر القابع على أبواب الحياة.

لم يحتمل مشاهد الفناء بين أسباب الحياة ولم تقوَ روحه الفانية على تحمل المصير فكانت الصرخة مدوية بين أمواج البحر العاتية فاستيقظ من نوم عميق ليتنفس الصعداء من جديد.

صلى للإله ركعات في مطلع يومٍ جديد؛ فأيقن أنه ربما نكون في حلم عجيب وأن ما نحيا أو نعيش ربما يكون ضرباً من خيال فتبسم وقال لنفسه هيهات يا دنيا البشر بين الواقع والخيال.

خرج في دنيا الأحلام يبحث عن قوت اليوم ورزق معلق بأسباب البحث سارح الفكر فيما شاهد من أحلام في مصير معدوم ومعلق برحلة الخلاص.. صدم بعربة محملة بالخضروات فرحل عبر الأمواج إلى المصير.

****

هل ضاع الحب

جلست حائرة، فعلى مدار السنوات الماضية ارتحل عنها والدها إلى العالم الآخر وامتطى أخوها دابة السفر بين طيات النسيان فوق أشرعة ابنة اليم إلى دنيا مغايرة للواقع وافترقت عن زوجها منذ سنوات عدة وفقاً لمجريات الأحداث على أتون المشاحنات واختلاف الرأي، جلست تراقب الحزن بين عينيها فقد رحلت والدتها لتلحق بأبيها بين طيات النسيان منذ عدة أيام.. طالبتها الحياة بالرحيل إلى عالم جفت فيه ينابيع الود بين جنبات العيش الكريم... تركت أيام الطفولة والصبا بين أثاث المنزل ورهن الديون التي اقترفتها نظراً لقسوة الحياة.... رحلت ولم ترجع لتبحث عن شيءٍ مفقود.

****

موتٌ ونداء

تحركت بحضورها الطاغي بين جدران المنزل، وتنفست الصعداء ونادت بصوتها المبحوح من طول النداء فإذا بها تسمع من المتواجد بفناء الدار ومن يغازل عصافير الأشجار في العصاري على أصوات الزقزقة والتي تكون سيمفونية عذبة الألحان في حديقة المنزل؛ فصمت الجميع يستمع النداء الآتي من بعيد كنداء الزائرين بين القبور على مشاهد الذكريات لساكني القبور وفجأة....

همست الأذرع المتشابكة في وسط الساحة البيضاء لتعلن على الملأ دقات عنيدة متتالية تقتل الصمت الرهيب في منزلنا.

كان العقرب الكبير يشير إلى منتصف الليل لتتوقف الحياة عندها.

****

ريال فضة

كانت ساعة البرج المجاور لشقته تدق الثانية عشر ظهراً عندما حمل حقيبته، وتوجه خارجاً إلى مقر عمله، وكالعادة رافقته هي إلى محطة القطار القريبة من المنزل؛ لتودعه وتترك قبلة حارة على خده تذكره بها حتى تاريخ عودته مرة أخرى.

بقيت معه حتى ركب القطار واطمأنت على رحيله وعادت إلى المنزل مطمئنة البال ساكنة الجوارح.

كان الإسكافي المواجه للمنزل يستمر طوال الأسبوع في عمله داخل المحل لتصليح الأحذية والشنط ولكنه كان دائماً مولعاً بالأحداث، مراقباً لها من بعيد شاهد عيان على كل كبيرة وصغيرة تحدث في الجوار لا تفوته شاردة ولا واردة إلا وقد سجلها وطبعها في ذاكرته.

لاحظ الإسكافي السيدة كما يلاحظ الجميع فطبيعة عمله تجعله جالساً يراقب الأحداث؛ فرأى أنَّ هناك شخصاً غريباً يتردد على هذا المنزل المواجه ويصعد ليبقى عدة ساعات ومن ثم يعود أدراجه من حيث أتى.

تكرر المشهد أكثر من مرة وفي يوم من الأيام لاحظ أن هذه السيدة تصعد أحياناً معه وخاصة عندما تودع زوجها أثناء سفره؛ فزوجها يعمل بجهاز الشرطة وهو في محافظة مجاورة ويأتي كل أسبوع تقريباً ليبقى معها لثلاثة أيام، ثم يعاود الذهاب إلى عمله.

راقب الإسكافي الموقف عن كثب ومن قريب حتى تأكد من علاقتها بهذا الرجل.

سافر الزوج وعند رجوعه كان الإسكافي ينتظره، نادى عليه قبل أن يصعد إلى شقته استجاب الرجل وذهب إليه وكانت المفاجأة.

قال له الإسكافي: ما رأيك في هذا الحذاء؟ فقال الرجل: إنه رائع حقاً ومصنوع بإتقان. فقال الإسكافي: هو لك.

فسارع الرجل قائلاً: شكراً جزيلاً ولكن لمَ؟!!

فقال الإسكافي: بشرط واحد.

فقال الرجل: وما هو؟

فقال له: أن تسمعني إلى النهاية.

جلس الرجل يستمع إلى الإسكافي، فقال الإسكافي: جميل أن يعمل الرجل ويكون محباً لأهل بيته ولكن تأتي الرياح بما لا تشتهي السفن؛ فقال له الرجل: أفصح ماذا هناك؟

فقال الإسكافي: ربما نكون نأتمن شخصاً ما ولكن السم في العسل، فكن حذراً من العسل فقد وقع به الذباب وما عاد يصلح لأن يكون طعاماً. فقال الرجل: وهل شاهدت الذباب يقع على العسل؟ فقال الإسكافي: لا أقول إلا ما أرى وتخير الأوقات وتحقق من الأحداث بحكمة ودهاء.

رجع الرجل إلى منزله كالعادة دون أن تلاحظ الزوجة أي تغير واستمر الرجل عدة أيام، ولكن قبل نهاية الإجازة قال: لا بد أن أسافر غداً بإذن الله فقالت الزوجة: لكن لماذا ترحل الآن؟ فقال: هناك مأمورية كلفت بها ولا بد من تنفيذها اليوم والعودة إلى العمل على الفور حمل حقيبته ورحل وكالعادة ودعته لتتأكد من الرحيل وقبل الرجوع إلى المنزل كانت قد اتصلت بالخائن المزعوم فجأة على عجل وصعدا إلى خلوتهما المحرمة وانغمسا في لذة العشق الممنوع.

كان الرجل قد اختفى متنكراً لدى الإسكافي ليشاهد بعينه الأحداث وقد رأى ما هاله للوهلة الأولى!! فقال له الإسكافي: ألن تصعد إليهم؟ فقال له: صبراً حتى يطمئن العصفور في العش.

صعد الرجل إلى شقته وفتح باب الشقة بالمفتاح دون أن يحدث جلبة في المنزل وشهر سلاحه وتوجه به إلى غرفة النوم وفتح باب الغرفة وشاهدهم منغمسين في العشق الممنوع.

عندما رأياه شاهراً سلاحه أصابهما الفزع والرعب وكادت أن تخرج أنفاسهم وهو يوجه ماسورة مسدسه إليهم وفجأة...

قال لهم الرجل: ارتديا ثيابكما وتعالا إليّ في صالة الشقة وقال لهما إياكما أن تتصرفا برعونة وإلا أطلقت عليكم النار وقتلتكم.

عندما جاء إليه أمر زوجته بتحضير طعام ليتناولاه جميعاً حتى يكون عيش وملح بينهما أحضرت الزوجة الطعام بعد تحضيره وأجلسهما على طاولة الطعام ولكن قبل أن يتناولا الطعام، قال بصوت مرتفع: توقفا ونظرا إلى العشيق وقال له هات عملة من جيبك فأعطاه ريالاً فضة فأمسك به ووضعه على صينية صغيرة وقال لزوجته في جميع الوجبات

تحضري لي هذا الريال على الصينية قبل تناول الغداء والتفت إلى الخائن وقال له: سوف أسامحك هذه المرة ولكن لو رأيتك مرة أخرى سوف أقتلك، تذكر كلامي جيداً، ثم قال أنت لا تأكل إلا عسلاً فقط، وبعد الأكل تنصرف ولا تعود مرة أخرى.

ظلت الزوجة كل وجبة من وجبات الطعام تقدم له الريال الفضة قبل الأكل فيظل ينظر إليه طوال الوقت حتى ينتهي من طعامه، ولا يتحدث إليها مطلقاً ولا يعاشرها معاشرة الأزواج وهي لا تستطيع الأكل.

ظل هذا الوضع مدة ليست بالقصيرة هزل جسدها وأصابها المرض وهي على هذه الحال لا تستجيب للعلاج ولا يعرف الأطباء ما بها.

دعا الزوج أسرتها على العشاء وتحاملت هي على نفسها وجاءت بالصينية الصغيرة عليها ريال فضة وقدمته إلى زوجها برغم مرضها وكالعادة جلس الجميع والزوج ينظر إلى الريال الفضة على الصينية دون أن يتحدث ببنت شفة ولكن والدها لاحظ الموضوع، فقال: ما الأمر لزوجها؟؟ فقال الرجل: أنا لن أتحدث ولكن هي تخبركم بما حدث؛ فالتفت إليها والدها وقال: ماذا يا بنتي ما أمر هذا الريال ولماذا لا تأكلين؟ فقصت عليه القصة وفاضت روحها إلى بارئها.

جهزوها لمثواها الأخير وجلس الزوج مع الأب المكلوم مرتين، فقال للزوج: بما أنك سترت عرضنا فلن تبات ليلتك عازباً، وقال له الزوج: ماذا؟ فقال الأب: سوف أزوجك ابنتي الأخرى، وبالفعل تم القِران من ليلتها لتخلف أختها.

كان العاشق متزوجاً ومطمأناً إلى زوجته؛ فهي تسكن في منزله وهو يعمل جزاراً في محل أسفل المنزل وكل شيء آمن كما كان يعتقد ولكن هيهات تلعب الأقدار لعبتها.

في يومٍ من الأيام شعر بالإجهاد والتعب، فأغلق المحل وتوجه إلى شقته ليسمع وهو خارج الباب ضحكات وكلمات تقشعر لها الأبدان؛ فدخل متسحباً وإذ به يشاهد زوجته في أحضان أحد الأشخاص، فيشهر سلاحه وينقض عليهما ليقتلهما معاً، وتحدث جلبة كبيرة في المنزل ويستدعي الجيران الشرطة التي تقبض عليه وتقتاده إلى قسم الشرطة.

كان الرجل يمر بالصدفة فلفت نظره الأحداث ورجال الشرطة فذهب ليشاهد الواقعة وإذا به يسأل أحد المتواجدين ماذا هنالك؟ فيقص عليه الموضوع ويشاهد العشيق الخائن تقتاده الشرطة فيقترب منه ويهمس في أذنه.... أطعمتكَ عسلاً، ألم تستطع أن تطعمهما بصلاً.

ارتحال

ارتحلَ يعانق الأمواج بعد أن أحدث جلبة بقطع الأرض المتناثرة بين الريح والمياه هنا وهناك، قضى أيام حياته يبحث عن شيءٍ مفقود، ورحل يعانق المقابر وكُتِبَ اسمه بالوحل على قارعة الطريق في صفحة من صفحات الزمن الغابر، وجدوها ممزقة في إحدى أركان المنزل فجمعوها ليجدوا مكتوباً تحت اسمه... رجلٌ مجنون.

****

رد الجميل

كانت الرحمة تملأ قلبه رغم فقره المدقع وتشرده ونومه على الأرصفة يتلقى حسنات المارة من الناس، وكان يجمعهم ليقسم عليهم الرزق الذي ساقه الله إليه، ولا يبخل رغم فقره وتشرده في الأزقة والحارات، وكنت تراه في نهار يومه بالقرب من مواقع القمامة يجمع الأشياء القديمة ويعيش بها على أنها أشياء ذات قيمة بالنسبة له، وكانوا يتجمعون من حوله لتمتلئ البطون بالفتات الملقى بأكوم القمامة ويأتي الليل فينزوي بأحد أركان إحدى الحارات بأثوابه المتسخة وجسده المنهك من سوء التغذية وعدم النظافة لسنوات طوال.. يلتحف بالغطاء الأكثر اتساخاً من جسده ويرقدون هم من حوله لتستعر أجسادهم بحر قلبه.

رغم مرضه النفسي وتشرده لم تمت الرحمة والشفقة من قلبه المنهك بل كان يعطف عليهم ويشاركهم زاده دون بخل أو ضجر وكان يحتضنهم بغطائه المتسخ ليدفئهم من قرصة الشتاء في الليالي المظلمة... وتستمر الحياة!!

ينقضي العمر وتهجع الروح المشردة في الأماكن إلى مأربها الأخير تاركة خلفها الحنين والشفقة بأبنائه المشردين.

وكأن رد الجميل للأب الحنون في ليالي العمر المنقضي على أرصفة الحارات بين همس وحنين بين لغات مختلفة وأجسام مختلفة وأرواح جمعها الحب رغم قسوة الظروف.

تراهم راقدين يحتضنوه ليتزودوا من الجرعة الأخيرة من الحنان المفقود قبل الرحيل أنهم أوفى من الكثير ممن يظنون أنفسهم أنهم عقلاء وأنهم يملأ قلوبهم الرحمة والشفقة احتضنوه ليتزودوا بالمشهد الأخير قبل الرحيل إلى مكان غير معلوم لهم فكيف سيرحل ويتركهم يملأ قلوبهم الحنين.

تجمع الناس حملوا الجثمان الهزيل إلى مثواه الأخير إلى قدره المنظور في ظلمة القبور...!!

وقفوا يشاهدون الرحيل المزمع على أرصفة القدر... ينظرون من بعيد أو ربما خطى أحدهم خطوات خلف الحب الراحل أو جرى مسرعاً خلف جثمان صاحبه ليودعه واغرورقت عيناه بالدموع... ولكن كانت عربة نقل الموتى قاضية على نظرته الأخيرة في وداع الشفقة والرحمة.

تركهم للتشرد بين الحارات والدروب لمصير غير معلوم في رحلة الحياة القصيرة على دروب الذكريات....

****

غياهب العالم الآخر

كانت قرينته من العالم الآخر، تراقبه عن كسب، في غياهب العالم الخفي، كانت ترتعش فرائصها بين حنايا الآبار والخرابات المترامية على أطراف المدينة، عندما يدنو من الخطر فهي ترى من مسافات كبيرة، وكانت تهم لتكون بجواره، ولكن لم يأذن لها بعد بالخروج من مقرها الذي ولدت فيه بعد، فما زالت في سن الطفولة رغم بلوغها عامها الخمسين، بعد المائة الأولى من عمرها الوافر، فهي في سن الطفولة.

وحتى يسمح لها باختراق الآفاق والخروج من مكان الميلاد، عليها أن تنجح في الاختبار المعد لها من قبل كبار القوم في عالمهم الخفي، انقضت سنوات قبل الخروج، إلى العالم المسحور لتراقب تصرفات البشر، وترجع بالتقارير على موائد السادة من زعماء العالم الخفي، سارت خلفه إلى أن وصل شاطئ النهر، إنها رحلة قصيرة ولكن كلها هموم، تهيأ لها إنه سيلقي بنفسه، من أعلى الكوبري ليغرق في قاع النهر، فقد أصابه الاكتئاب منذ فترة طويلة، وهي تعلم كيف تقدم له الدواء، فقد تعلمت ذلك في المدرسة الرقطاء،

المبنية على بحر الدموع بين جبال توران خلف المملكة الخرساء، مملكة الملك سندال.

وقف صامتاً يتأمل مياه النهر بنظرات حائرة، تارة يزرف الدموع، وتارة يضحك ورغم صغر سنه إلا أنه أصابه الاكتئاب، وفجأة، ....

تحرك مسرعاً ليقبض على حديد دربزين الكوبري ورفع قدمه ليلقي بنفسه إلى النهر، أسرعت تحتضنه أحس بقشعريرة تملأ جوانبه وحرارة تلجمه عن الحديث، أرتمي الجسد الهزيل على الثرى يتلوى، ولكن لا أحد يستجيب فالمكان منعزل، عن القرية، وقد انتصف الليل، وكعاة أهل الريف النوم المبكر، وفجأة اعتدل، ليرى فتاة فائقة الجمال، على بعد خطوات، منه تقول له وماذا بعد؟

بنى وكراً على أطراف القرية، يستجمع فيه همسات من العالم الآخر، في ليالي النسيان.

****

أرزاق على وهج النار

هاجت برأسه الذكريات وهو في الرمق الأخير وقد اعتصر جسده أتون النار الملتهب الذي قضى عمره كله أمامه حتى صار الجسد الهزيل لا يقوى على القيام فرقد عاجزاً في سرير في أحد أركان عنبر المستشفى العام ليتعالج من الربو الممسك به.

كان طفلاً في الثامنة من عمره عندما ترك المدرسة متوجهاً هو وأبوه إلى الفواخير بمنطقة مصر القديمة خلف مسجد عمر ابن العاص نظراً لضيق المعيشة وعجز الأب عن القيام بها في ظل إخوته الستة.

استقبل المعلم أبي ودار بينهم حديث قصير فهمت فيما بعد أن طلب منه أن أعمل بفواخير أخذني المعلم ليلقي بي وسط حفنة من أقراني للعمل على نقل الأشياء الفخارية التي أستطيع نقلها بدون أن تتحطم.

مع صغر سني كنت أراقب كل شيء وكيف كانت تأتي إلينا الأتربة الفخارية من طواحين المحاجر والتي كانت عبارة عن تربة ملونة تأتينا بكميات كبيرة وكانت يتم نقلها للتخزين بمخازن مجاورة لأفران الحرق، في بادئ الأمر كانت مهمتي هي عبارة عن النقل فقط.

كنت أعود إلى منزلنا منهك القوى لتلتقطني أمي على الفور وتلقي بي إلى الحمام لأستحم وكنت أتناول وجبتي الوحيدة طوال اليوم وأنا يغلبني النعاس وكانت أمي دائماً ما تتشاجر مع أبي بسبب عملي في سن مبكرة وكان دائماً ما يقول لها أجيب لكم من فين خليه يتعلم صنعة تنفعه.

مرت الأيام وكان المعلم يلاحظ فهمي وكثرة أسئلتي وكان يتنبأ لي بمستقبل في الشغلانة وكان من وقت إلى آخر يشرح لي ويعلمني العمل وأسراره وكان كمن يجمع في قارورة الماء والتي كانت تكبر عبر الأيام ويكثر بمحتواها الماء المنسكب بداخلها.

كبرت وكبرت معي المهنة وتعلمت أسرارها فكنت أضيف التراب الفخاري والذي كان يأتي إلينا والذي كان يتعاقد عليه المعلم مع أصحاب المحاجر، فكنت أضيف الكمية المراد عجنها إلى حوض ضخم ونقوم بعجنها بالماء وبعض المواد التي تساعد على التماسك حتى تصير في قوام معين يعرفه صناع الفخار وتأتي المرحلة الثانية، وهي التصنيع وكل مرحلة من هذه المراحل لها أسرارها وفنياتها التي كنت قد شربتها من خلال المعلم حمدان والذي كان قد تقدم به السن ولم يعد يقوى على العمل وكان يعتمد عليه كلياً فقد زوجني ابنته.

المرحلة الأخيرة وهي أهم مرحلة من مراحل هذه الصناعة وهي مرحلة الحرق وكانت من الأهمية بمكان فأسلوب الرص داخل الأفران بطريقة معينه وطريقة إشعال الأفران وتوصيلها إلى درجة حرارة عالية وقبل ذلك أحكام غلق الأفران حتى لا تتسرب النار إلى خارجها والوقوف عليها حتى تتحقق من وصولها لدرجة التسوية والنضج كل هذا يحتاج حنكة ومعاملة خاصة وعصارة سنوات من الشقاء والعناء أمام الأفران.

استفاق مهران من الذكريات عندما سمع صوت زوجته أخيراً بعد عدة نداءات عليه مهران... مهران.. أنت سارح في أيه.

عاد مهران والقلب ينزف بداخله على سنوات العمر الضائع بين أحلام الكرى وقسوة الحياة المريرة التي يحياها ليقرر الرحيل إلى عالم المجهول تاركاً خلفه زوجة تقاسي مر الحياة بثلاثة أبناء سوف يكون مصيرهم مثل مصير مهران في دنيا الفخار على لقمة عيش على الوهج أمام أتون النار.

****

عبدٌ يحرر عبداً

اشتهت نفسه إحدى أنواع الفاكهة فسار على قدميه مسيرة يوم وليلة هائم على وجهه في الصحارى بغير زاد سيراً على الأقدام وعندما دخل المدينة رأى بائع التين جالساً وإلى جواره سيد يظهر عليه الثراء فخلع خفيه وقدمهما لبائع التين ليشتري بهما تين؛ فنهره صاحب الفاكهة، وقال له: يا مجنون أيعقل أن أبتاع لك التين مقابل خفك البالي هذا؛ فذهب وجلس بعيداً في مرمى نظر بائع التين.

قال السيد لصاحبه: لماذا لم تعطه التين إنه الزاهد العابد، إذا استطعت أن تعطيه التين بالمجان عتقتك لوجه الله، لقد كان سيده وهذا عبده فذهب إليه صاحب التين وعرض عليه التين بالمجان ولكنه رفض بشدة.

فقال له: يا سيدي أرجوك أن تأخذ التين مني حتى أتحرر مما أنا فيه. فقال له: أحررك وأسجن نفسي!! يا بني لن آكل التين إلى يوم الدين.

رجع الرجل يجر ذيل الخيبة إلى سيده، وأثناء رجوعه سمعه يتمتم بكلمات. من تخير بدون أن يتشرع فقد تفسق، ومن تشرع بدون أن يتخير فقد تزندق، قالها وهو يولي الأدبار وعندما عاد الرجل إلى سيده، قال له: لم يأخذ

مني التين، فقال له: وماذا قال لك؟ فقال له: لقد قال لي أحررك وأسجن نفسي... فقال له سيده: أنت حر لوجه الله.

عاد المجذوب سيراً على الأقدام مسيرة يومٍ وليلة، هائماً على وجهه حتى آكل ورق الشجر في الفيافي والصحراء.

جلس عندما كان موضع مشاهدة أنوار مكة يتطلع إلى أنوار الجلال والكمال.

كان يكتب خواطره على رقائق الأحجار والأخشاب التي كان يصنعها من من الأشجار المترامية في الصحراء والتي نبتت على حفيف المطر مثل روحه المعلقة بالسماء.

كان يستقبل الحجاج في طريقهم إلى الأراضي المقدسة يلتمسوا لديه الشراب والطعام وراحة الأبدان في رحلتهم المقدسة.

أصبح للعبد المجذوب مريدين وتلاميذ واعتمر المكان بفيض الحنين إلى المعلم.

عندما قرب الأجل نده إلى تلميذه وقال له: لقد قرب الأجل إياك أن تغسلني فأنا من سأغسل نفسي بنفسي، اندهش المريد وخطف قلبه من شدة الكلمات وانتابه صمت أغرق المكان بين المعلم والتلميذ لقد نفد الأجل.

سمع دق الباب؛ ففتح فإذا بالمعلم يتوجه إلى الجسمان ليغسله دون أن ينطق بكلمة واحدة والمريد واجم من شدة ما رأى من الكرامات على أبواب المجذوب.

****

ذق ذق

سبحات بين أيامنا ولياليا تورق الأغصان بأبهى الأوراق في نضرتها ترى الوجود في لمحة بريقها الأخضر تعلوها زقزقة من عصفورة تغرد لحن الحياة بالقرب من نافذة العشاق ليعزف الوجود قصة مليئة بالأحداث لمجريات الغزل الدائم بين جنبات الدنيا، إنها حكايات لا تنتهي وعصافير تملأ الوجود بصخب دائم متلون كألوان الصباح في مواسم الربيع، فهي تغدو سابحة بين السماء الأرض تحملها الرياح على أجنحة القدر، تتنقل هنا وهناك لتكون سيمفونية من الإبداع والعشق الذي لا ينتهي حتى بأفول الشمس على موائد الدنيا، لتعود إلى أعشاشها إياب المسترجع حكايات الأمس بالغد ليواصل العطاء، في يومٍ جديد، فأي عطاء هذا وأية مثابرة تلك على الحياة.

شاهدتها يوماً على أغصان توتة منزلنا وكأنها تخاطبني بألحانها الرقيقة ولغتها رائعة الجمال في الخطاب فيا عجباً إنها لغة تتكون من كلمة واحدة (ذق ذق) ولكن نظراتها وحركاتها توحي لك بعالم اللغات السرمدي وكأنها تقول لك ألا تفهم لغتي الرقيقة، إلا تتفهم مفرداتها المليئة بالمعاني الخالدة، ثم تدنو منك بخطوات وئيدة وتتراجع بقفزات، مسرعة متنقلة بين

الأغصان، لتحلق بعد ذلك في فضاء غير منتهٍ ضاربتةً بجناحيها ذلك الأفق الساطع في سحابات لا تنتهي، فمن أين لهذين الضعيفين كل هذه القوة للتحدي، إنه يوم جديد تخبرك بأن الحياة قد بدأت عندما تطرق بمنقارها الضعيف نافذة غرفتك في نقرات متواصلة وكأنها تقول بدأت الحياة فلما الكسل هيا للرزق وللعطاء.

شاهدتها ملقاة على جانب جدار وقد غادرتها الحياة بغيرة رجعة في البداية لم أتمكن من التعرف عليها جيداً ولكن بعد تدقيق النظر والوثوب بمقربة منها والنظر إليها من كل جانب تعرفت عليها وقد سُلبت الحياة، آه يا صغيرتي لكم طال بيننا الفراق على أعتاب القدر ورحلتِ عن دنيانا بدون وداع وهجرتِ الأفنان وصمت الوجود عن ألحانك السرمدية وتركتِ فينا الأثر الجميل على صفحات الذكريات، وكلما نظرت إلى توتة منزلي تذكرت غدواتك الرقية والتي نحتت موضعها في ذاكرة الوجود، فمتى دخلتِ الوجود وكيف خرجتِ منه؟ لتتركي لنا لحن الخلود في همس البلابل لتتألف منها حكايات الهوى لتصير حكايات لتعمر الدنيا بعصافير جديدة وتستمر الحياة.

****

محتويات الكتاب

إهداء.....5
أتون الذكريات..... 6
أين الكنز 10
الصدق منجي.....16
أزقتي مَرْمِيَّة.....20
أحكام مغلوطة 22
النبوءة 26
همسات على موائد الذكرى.....34
الطريق 40
وعدٌ وهدية... 45
ما أصعب السنن.....47
لحظات صدق.....49
دهشة.....51
سَنَابلُ الحصَاد.....55
جميلات على أبواب العنوسة.....58
أحلامٌ ضائعة.....59
حب وكبرياء.....62

سر العطاء 64
لعبة الأقدار 67
رحمٌ ممزقٌ.....68
المصير.....70
سبحات الذات.....71
هل ضاع الحب 73
موتٌ ونداء 74
ريال فضة.....75
ارتحال.....81
رد الجميل.....82
غياهب العالم الآخر.....84
أرزاق على وهج النار 86
عبدٌ يحرر عبداً.....89
ذق ذق.....92
محتويات الكتاب.....94

♡ تم بحمد اللّه ♡

سنابل في موسم الحصاد

مجموعة قصصية

أحمد عزيزالدين

الطبعة الأولى
1442 هـ 2021 م
دار ديوان العرب للنشر والتوزيع
مصر – بورسعيد

جوال: 00201211132879

E-mail: mohamedhamdy217217@gmail.com